خالي الذي في قبضتهم

ملاذ الزعبي

خالي الذي في قبضتهم

سلسلة شهادات سورية -23- خالي الذي في قبضتهم
ملاذ الزعبي

صورة الغلاف: ملاذ الزعبي
تصميم الغلاف: فادي العساف

الطبعة الأولى 2017

تمت طباعة هذا الكتاب بمساعدة من جمعية
«مبادرة من أجل سورية جديدة» - باريس

جميع الحقوق محفوظة للناشر. لا يجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب، أو اختزان مادته بطريقة الاسترجاع، أو نقله، على أي نحو، أو بأية طريقة سواء أكانت إلكترونية، أم ميكانيكية، أو بالتصوير، أو بالتسجيل، أو خلاف ذلك إلا بموافقة كتابية مسبقة من الناشر.

الناشر:
بيت المواطن للنشر والتوزيع
دمشق الجمهورية العربية السورية
هاتف: 78840213 961+
بريد إلكتروني:
baitelmouwaten@gmail.com

التوزيع:
أطلس للنشر والترجمة والإنتاج الثقافي
شارع الحمرا بناء رسامني
ص.ب: 6435 / 113 بيروت لبنان
هاتف: 750054 1 961 +
فاكس: 750053 1 961 +
بريد إلكتروني:
atlasbooks@gmail.com

الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبّر بالضرورة عن آراء الناشر.

الإهداء

إلى فاطمة

خالي الذي في قبضتهم

(نُشر في جريدة «المدن» الإلكترونية، 2014/2/10)

لطالما ارتبط خالي مأمون، في ذهني، بالعيد. كان استثناءً بين سلسلة الأقارب الكبار الذين كنت أقف إلى جانبهم دقائق طويلة، في أول أيام العيد، لإفهامهم أنني أريد الحصول على العيديّة، وليذهبوا بعد ذلك إلى الجحيم. كان يبادرني بابتسامة العارف عندما يراني مقبلاً باتجاهه، فهو يدرك أنه لا يعنيني كثيراً. ويعرف أن ما قد يتبقى من لعابٍ على خدّي، إثر طبعه قبلةً عليه، سأسارع إلى مسحه بكفّي أو كمّ قميصي، بمجرد انزياح عينه عني. لا يلعب بأعصابي ولا يشغلني كثيراً عن أوقات المرح، يُخرج من جيب بنطاله القماشيّ ورقة نقدية زرقاء اللون من فئة 25 ليرة، عليها صورة للناصر صلاح الدين، يناولني إيّاها فيما هو يدندن باسماً أغنيةً للأطفال لم أفهم معناها حتى اليوم: «صلاح الدين الأيوبي.. عندو بقرة مجدوبي.. ضربها كفّ.. لفّها لفّ.. حطّها بطنجرة اللوبي!».

أخطف العيديّة من يده وأركض في اتجاه معاكس، فيما هو يقهقه ويصرخ بي مؤنّباً: «كلّ عام وأنت بخير!»... أسمعه أو لا أسمعه، أردّ عليه المعايدة أو لا أردّ، فيما أنا أحتفل في سرّي بأنه أجزل العطاء ولم

يُحاكِ بخلَ الأقارب الباقين الذين كانوا يكتفون بتوزيع عشر ليرات على جحافل أطفال العائلة، بعدالةٍ كنّا نمقتها.

شجرة التوت الكبيرة في جنينة بيت جدّي ارتبطت هي الأخرى في ذكرياتي بخالي مأمون، بيت جدّي الراحل استحال مسكناً مقسوماً إلى بيتين أصغر حجماً لعائلتَي خالي حسين، المتوفّى، وخالي مأمون، ولمنزل الأخير مدخلٌ جانبيّ واطئ يناقض جدران البيت العالي. بُني على عجل وعُبّد كيفما اتفق بأسمنتٍ رخيص وباب حديديٍّ أحمر صغير يقود إلى «التوتة»، كما اعتدنا أن نطلق عليها، كان خالي مأمون خلال الاجتماعات العائلية الكبيرة ينسلّ من المضافة إلى الجنينة حيث نجتمع أنا وأبناء أخوالي المتقاربين في السنّ: عليّ، وأمين، وميّار القادم من دمشق، والذي يعاملنا كمستشرق اضطرّته الظروف إلى احتكاك مؤقت بمجموعة من الأعراب.

يحاول خالي ضبطَنا ندخّن تحت التوتة، أو نعبث ببندقيّة ضغط قديمة ورثها عليّ عن أبيه، وكان يتحايل على الجميع للتسلية بها في حديقة المنزل الخلفية، يحذّرنا خالي من مساوئ التدخين فيما هو يشعل لنفسه سيكارة حمراء طويلة، يدخّنها بشراهة، ثم يعود أدراجه إلى المضافة.

في مطلع الصيف، كان وجود خالي في الجنينة يعني وجبة شهيّة من التوت، يفرش الأرض بمجموعة بسط وشراشف قديمة، يخلع حذاءه المنزلي، ويأخذ في تسلّق التوتة كمراهق عابث، تطير العصافير جزِعةً بعد وصوله إلى التفرّع الأول للجذع العريض، يسعى، بلا جدوى، لطمأنتها بتلويحة من يده، قبل أن يواصل الارتقاء إلى أعلى، تختال على وجهه بقايا أشعة شمس وجدت طريقها عبر أوراق الشجرة وأغصانها الكثيفة، ثم يبدأ بهزّ الأغصان، فتمطر السماء توتاً.

يصرخ بنا من أعلى أن ننتظر حتى يغسل المحصول المنهمر بالماء، أتحايل عليه خلال هبوطه للانقضاض على حبة حمراء ناضجة أخشى أن تسبقني يد أخرى إليها بعد تنظيفها، يجمع ما سقط من حبّات بيضاء مائلة إلى الخضرة، أو بيضاء حليبية، أو زهريّة، أو حمراء قرمزية – هي الأشهى والأكثر نضجاً، يغسلها برفق، ثم يقدّمها لنا في وعاء بلاستيكي.

يراقب خالي أيدينا التي تتخاطف الحبّات القرمزية أولاً، ثم تنتقل إلى الزهرية فالبيضاء، يضحك وهو يصفع مازحاً رقابنا النحيلة والعارية كالصيصان، يتمعّن في أكفّنا المحمرّة بفعل حبّات التوت الناضجة ثم يقول: «صحّة خالو.. صحّة!»...

مضى على خالي مأمون وابنَيه ثامر ومحمد طاهر، في أقبية الأمن السورية، أكثر من ثلاثة عشر شهراً، لا نعرف عنهم شيئاً منذ اعتقالهم تعسّفياً في درعا، في شهر كانون الأول من عام 2012، توفّي خالي سعيد بأزمة قلبية في شهر كانون الأول الماضي، بالتزامن مع الذكرى الأولى لاعتقال شقيقه وولدَي شقيقه.

ابن الأجاويد

(نشر في جريدة «المدن» الإلكترونية، 2013/12/31)

كان هذا في الربيع الفائت، مشواري التطوعي الأول إلى مخيم شاتيلا للاجئين الفلسطينيين، الذي غدا مخيم شاتيلا للاجئين السوريين أيضاً، كنت أحاول أن أقنع نفسي، أنا الوافد الجديد إلى لبنان حينذاك، أنني ما زلت مساهماً في الثورة بعد مغادرتي دمشق، رغم أنني كنت مجرّد متابع سلبيّ في شهوري الأخيرة في الداخل.

في مخيم شاتيلا تغيب العنصرية في الغالب الأعمّ، الانطباع العام هنا يقول: ثمّة لاجئون يشبهوننا، يعانون تغريبة خَبِرناها قبل خمسة وستين عاماً للمرة الأولى، ثم خَبِرنا ما يشبهها على دفعات، هم مثلنا، خرجوا من بلادهم مضطرّين، وأتوا إلينا حيث المكان أصلاً ليس مكاننا، بعضهم ممن تغرّب معنا قبل عقود، لكنه اختار حينذاك طريقاً أخرى.

يقتصر دوري وأصدقائي على توزيع مساعدات غذائية عبر إحدى الجمعيات للعائلات السورية والفلسطينية السورية في المخيم، تأتي النسوة زُرافات، بعضهن يحملن أطفالاً رضّعاً بيَد، فيما تقبض اليد الأخرى، لكلٍّ منهنّ، طفلاً لم يتجاوز الرابعة من عمره، أما الشقيق

أو الشقيقة الأكبر قليلاً والذي لم يجد يداً تمسكه فقد تشبّث بجلباب الأم بعنف.

الرجال في دور الانتظار هذا أقلّية، عرفت لاحقاً أنهم يخجلون من الوقوف في طوابير المساعدات، لذا يرسلون زوجاتهم أو بناتهم أو شقيقاتهم، تلكزني أمل، ابنة مخيم شاتيلا، التي حوّلت منزلها إلى مستودع مؤقت لتوزيع المساعدات: «هذا من جماعتك!»، فيما هي تشير إلى رجل في الخمسينيات، قاصدةً أنّه من محافظة درعا التي أنتمي إليها.

ألقي التحية على الرجل، وأخوض معه نقاشاً قصيراً باللهجة الحورانية:

- مرحبا عمّ!
- أهلا وسهلا!
- من وين عمّ؟
- من درعا
- من وين من درعا؟
- من الحراك
- هلا فيك عمّ، شلون الحراك؟
- ليش هو ظلّ حراك..

ينتهي الحديث هنا، يتبعه صمت ثقيل، تنقذني عجوز تحتاج إلى مساعدة في حمل سلّتها الغذائية لتصل بها إلى الشارع العام، ثم أعود بعد دقائق، صخبٌ ما في الدور، العمّ نفسه يخوض نقاشاً حاداً بعض الشيء مع أمل، هو يريد فرشات إسفنجية إضافية لعائلة أخيه التي وصلت أمس إلى لبنان، وهي تؤكّد له أن المستودع لا يحتوي فرشات،

وأن على العائلة أن تسجّل طلبها وتنتظر أسبوعاً آخر للحصول عليها. يطرح عليها سؤالاً حانقاً ومحقّاً: «من هون لأسبوع وين يناموا؟ عَ الأرض؟»، تهزّ أمل كتفيها دلالةً على العجز.

يلتفت العمّ حوله بحيرة، ينظر إليّ ويهمّ بالمغادرة، ثم يخاطبني: «عمّي، أني مضافة بيتي بالحراك قدّ أربع بيوت بشاتيلا.. أني ابن أجاويد.. أني ابن أجاويد».

أُمّي مهاجرة غير شرعيّة

(نشر في جريدة «المدن» الإلكترونية، 2013/10/17)

لم يساورني القلق بداية. لطالما غابت التغطية عن جوّال والدتي، فمنذ انتقالها إلى بيت جديد في الإسكندرية والاتصالات بيننا متقطّعة. قليل من الشكّ تسرّب إلى أفكاري لغياب التغطية أيضاً عن هاتف أخي المحمول، استحال الشك قلقاً بعد محاولتي الفاشلة للاتصال بزوجة أخي، كان إذاً لا بد من الاتصال بأبي، أمر حاولت تجنّبه فاشلاً كي لا أضطرّ إلى الكذب ردّاً على استفساراته عن صلاتي وصيامي وقيامي وغضّ بصري وحفظ لساني.

– مرحبا بابا!

– وعليكم السلام ورحمة الله، أهلاً بابا!

– بابا، حاولت أتّصل بأمّي وبعبد الر...

– أمّك وأخوك ومرته وبنته بالبحر من يومين، بطريقهم على إيطاليا ومنها عالسويد.

كان جواب أبي حادّاً كنصل السكين، وبارداً وكأنه يحدثني عن زيارة أمي المعتادة إلى بيت جارتنا «أم أنس»، عندما كان لا يزال هناك

بيت وجيران وحي وزيارات في درعا، روايته غير المكترثة بدت أشبه بصعود عدّة درجات من طابق إلى طابق، أو في أسوأ الأحوال وصفاً مقتَضباً لمشوار تبضّع طويل ومجهد، لا عن رحلة قد تكون الأخيرة.

شرح لي والدي بحياد مذيع نشرة أخبار، أنهم فضلوا عدم إخباري كي لا أعترض، سبق لهم أن طرحوا الفكرة، وثقب صراخي الغاضب سماعة الهاتف حينذاك، اختاروا الذهاب إلى السويد مع الذاهبين، «رحلة مضمونة وكل شيء مؤمّن»، سيصلون إلى إيطاليا في غضون أيام، ومنها ينتقلون برّاً إلى ألمانيا عبر النمسا، ومن ثم الدنمارك قبل بلوغ هدفهم.. الجنّة السويدية.

تتوالى الأيام اللاحقة في قلق مستمر، والدتي الستّينية وابنة أخي التي لم تكمل عامها الأول، استهلكا الجزء الأكبر من أفكاري، «أخي وزوجته شابّان قادران على تحمّل الرحلة القاسية»، أقول في نفسي، ثم أقرأ خبراً عاجلاً عن قارب غرق قبالة الشواطئ الإيطالية، ركّابه سوريّون وفلسطينيون، أتجاهل الخبر، محاولاً التركيز على مجزرة في ريف إدلب، أو تتبّع مسار صاروخ سكود انطلق من القلمون باتجاه الشمال السوري، يصبح الخبر العاجل قديماً وتتضح تفاصيله أكثر: الغارقون معظمهم أفارقة وليس بينهم سوريون، وهو آتٍ من السواحل الليبية وليس المصرية، أتنفّس الصعداء مؤقتاً، وأحاول ملء وقتي بأخبار المجازر السورية التي تطبّعت معها منذ زمن.

ليلة اليوم الخامس يأتي خبر جديد من وكالة آكي: خفر السواحل الإيطالي ينقذ زورقاً يحمل مهاجرين غير شرعيين سوريين من الغرق، بعد جنوحه بالقرب من جزيرة صقلية، ثم يأتي الخبر «السعيد» صباح اليوم التالي، عائلتي كانت ضمن الناجين على هذا الزورق تحديداً، والفضل لأخي «البطل»، الوحيد الذي كان يحمل جوّالاً على متن

القارب، وبفضل جوّاله استطاعت السلطات الإيطالية تحديد موقع القارب عن طريق «نظام تحديد الموقع» – GPS.

مرة أخرى يعاودني الشعور أنني «أخو البطل»، ميزة خبرتها جيداً في الشهر الثاني للثورة بعد اعتقاله من قبل الأمن في درعا، حينذاك تاجرتُ بذلك ما استطعت للعب دور الضحية والتقرّب من الفتيات، فالاعتقال في دمشق، حيث أقيم، كان مؤسطراً ولم يتحول إلى مسألة معتادة بعد. أفكر أنني لا أستطيع استغلال ذلك الآن، ولن يكون في إمكاني إنشاء صفحة في «فايسبوك» تطالب بمنح عائلتي اللجوء، مثلما أنشأت صفحة للمطالبة بحرية أخي.

وصلت عائلتي إلى السويد بعد عدة أيام، استقرّت في قرية قرب مدينة «هالمشتاد» في انتظار إكمال الأوراق، الاتصالات بيننا متقطّعة، سأبدأ بالإعداد لتحقيق صحافي عن الهجرة غير الشرعية للسوريين من مصر إلى السويد عبر البحر المتوسط، ولديّ شاهدة عيان مستعدّة للكلام... أمّي.

السينما كما تحصل في سوريا

(نُشر في جريدة «عنب بلدي»، 2015/9/20)

- 1 -

لم تُثر مالينا خيالات رجال الحيّ خلال الحرب وغياب حبيبها المقاتل، اختارت هي الأخرى التطوع في قوات الحرس الجمهوري. حملت بندقيتها على كتفها وذهبت لترابط على حدود جوبر. عبر منظار القناصة شاهدت توأمها المحجّبة، أردَتها برصاصة وبدأت البحث عن ضحية جديدة.

- 2 -

جلس جاك بجانب روز منذ البداية، ففي «البَلم» لا درجات تفصل بين الركاب أو بين العشاق، كان من المستحيل على البطلة أن تقف في مقدّمة «البلم» أمام بطلها وتغمض عينيها متخيّلة نفسها تحلّق عالياً، فهذا قد يخلّ بتوازن المركب، كما أنه يثير حفيظة المهرّب والركاب الآخرين. ورغم أن القارب لم يصطدم بجبل جليدي إلا أنه بدأ بالغرق، حاول جاك ما بوسعه السباحة، لكن مصيره كان قاع المياه قبل وصول

مراكب خفر السواحل الإيطالي. كذلك كان مصير روز، فلم يحتفظ أحد بالعقد ولم يبقَ من يروي الحكاية.

- 3 -

فجأةً، بدأ فوريست غامب الركض في اليونان، وصل إلى صربيا، اعتقد الجميع أنه سيتوقف. تابع جريه إلى مقدونيا. اهتمّت الصحافة العالمية بهذا الرجل الذي يركض. هو لم يكترث لشيء، كان يركض ويركض ويركض، واصل ماراثونه مروراً بهنغاريا، جرى بمحاذاة شريط شائك طويل، وعندما شاهد بعض العدّائين يجتازونه اجتازه معهم إلى النمسا، عبر بلاد موزارت وصولاً إلى ألمانيا. وكما انطلق فجأةً توقف فجأةً وتقدّم بطلب لجوء بهدف الاستقرار هناك.

- 4 -

عندما بدأ ويليام والاس بتنظيم الرجال في مقاومة مسلحة للحصول على حرية البلاد، لم تدعمه هيئة التنسيق، صرخ أعضاؤها بملء أفواههم: «لا للعنف... ضد النظام». لم يلتفت ويليام والاس لصرختهم، وبدأ البحث عمّن يدعمه بعيداً عن الهيئة، أمّا العنف الذي تغاضت عنه هيئة التنسيق فلم يقتصر على رجال الملك إدوارد ذي السيقان الطويلة، بل شمل أيضاً قوات القيصر نيكولاي الأول.

- 5 -

سيطر مقاتلون معارضون على معمل شندلر، فكّكوا آلاته وباعوا الحديد لتجّار في تركيّا.

- 6 -

خلاف موفاسا وسكار كان شكلياً. كلاهما، ومعهما لاحقاً سيمبا بعد بلوغه وخلافته لأبيه، تعاونوا على السيطرة على الغابة وسرقة ثرواتها وتدميرها وقتل سكانها.

- 7 -

راقص التانغو الأخير في دمشق.. كان شبّيحاً.

شتائمي السرّيّة

(نشر في جريدة «المدن» الإلكترونية، 2013/9/8)

في بيروت، لا أتفقد جوّالي المركون في غرفتي، السوريون هنا كُثُر والأصدقاء هنا كثر، لكنْ، لا أحد منهم يكترث لأحد، وجميعنا نكره جميعنا، وأنا أعلم علم اليقين أن أحداً لن يرسل لي تحيّة أو يدعوني إلى سيران في الزبداني، أتجنّب الذهاب إلى «الحمرا» كي لا أرتطم بسوري قد أعرفه وقد لا أعرفه، هو مثلي يكره النظام ويناصر الثورة، وهو مثلي لا يحبّني ولا أحبّه، وهو مثلي لا يعرف سرّ هذه الكراهية المتوقدة، كلانا يدعو إلى تقبّل الرأي الآخر، لكننا لا نتقبّل الرأي المماثل!

بيروت هي «ستّ الدنيا» في العنصرية والقسوة، هنا لا يبتسم لك البائع بعد أن تشكره، لهجتك كشفتك مسبقاً، وأنت غير مرحّب بك ولو كنت تغدق عليه ببضعة دولارات، إجزال الشكر والإطناب فيه يدفع البائع لأن يزمّ شفتيه محاولاً رسم ابتسامة، لكنّها تنزّ كراهيةً بدلاً من الترحيب، ألعن، في سرّي، ربّ لبنان وسوريا والنظام، وأخرج.

في بنايتي، لا يبتسم الجيران لي، أنا السوري الوضيع، هم يحبّون

الأجانب، الأسترالية الشقراء القبيحة التي تقطن البناء نفسه تترك القمامة في المدخل، وتضع موسيقا صاخبة، ولا تلتزم بدفع فواتير الكهرباء، لكنني أسمعهم يهلّلون لها كلّما رأوها: «بونجور، سافا!». في المرّة الوحيدة التي فاجأتني بها جارتي العجوز بـ«سافا» غادرة، ارتبكتُ واكتفيت بابتسامة مصطنعة، لأنّي لا أجيد الفرنسية.

في الشارع، لا أجرؤ على فعل شيء سوى المشي، لا أعترض على سائق سيارة أجرة أطلق العنان للزمّور وتسبّب بأضرار دائمة لغشاء طبلي الأيمن، ولا على أزعر يمتطي «سنفوراً» يكاد أن يدهس أنامل قدمي المتفاوتة الطول بعد أن اجتاز إشارة مرور حمراء. في درعا كنت أخرج إلى البلكون وأرمي الدرّاجات النارية ذات الأصوات المزعجة بحجارة من بصل وملاقط غسيل مشفوعةً بالشتائم، هنا أواصل النظر إلى الأمام متجاهلاً كلّ ما يحصل، بعد أن ألعن ربّ لبنان وسوريا والنظام والأمة العربية، في سرّي.

في دمشق كانت تأتيني الجرأة أحياناً لأناقش سائق تكسي، يعمل في الأمن العسكري، بخصوص الثورة، في بيروت لا أجرؤ على إظهار تعاطفي مع سائق التكسي المؤيد للثورة السورية.

الكائن الرمادي

(نشر في جريدة «عنب بلدي»، 2015/7/19)

الكائن الرمادي لا مع هؤلاء ولا مع أولئك، لا مع القتيل ولا مع القاتل، لا مع الضحية ولا مع الجلّاد، لا مع المتّهم ولا مع المدّعي، لا مع البريء ولا مع المجرم، لا مع المعتدي ولا مع صاحب الحقّ، لا مع حركات التحرر ولا مع الاستعمار، لا مع بهيّة ماردیني ولا مع أسماء الأسد، لا مع الأهلي ولا مع الزمالك، لا مع القصة القصيرة ولا مع الرواية.

الكائن الرمادي يناصر المرأة عندما يسمع كلمة «مساواة»، فهو مع المساواة بين أيّ طرفين، وبعدما يدرك أن في المسألة نضالاً لتحقيق هذه المساواة ينفض يده منها.

أقرب النتائج في كرة القدم إلى قلب الكائن الرمادي هي التعادل، حتى وإن كانت مباراة نهائية يجب أن تنتهي بفائز وخاسر. وأكثر ما يمقت ضربات الترجيح.

في القصة الشهيرة للسيدتين المتقاضيتين على طفل، يتظاهر القاضي فيها أنه سيقطع الطفل بالسيف كي يقسمه بينهما، لاكتشاف

هوية الأم الحقيقية الجزعة على الطفل، ومن ثم منحها طفلها، أمّا القاضي الرمادي فلن يتظاهر ولن يمثّل، بل سيقطعه شقفتين فعلاً، ويمنح كل سيدة شقفة مساوية للأخرى «على الليبرة»، ويريح رأسه.

الكائن الرمادي لا يفهم بالسلاح، لا يعرف أين ألقيت القنبلة الذرية عام 1945 ولا من ألقاها، غير متأكد من وجود براميل متفجرة أو سلاح كيماوي، وهو وإن كان يسمع القصف المدفعي بالصرماية، إلا أنه لا يراه ولا يتكلم عنه، لكنك إذا سألته عن قذيفة هاون، قدّم لك شرحاً تفصيلياً عن هذا السلاح الفتّاك.. ويوميّاته.

لا يكترث الكائن الرمادي بالمحاصَر الجائع البعيد عنه جداً.. أكثر من بضع مئات من الأمتار، لكنه يصرخ بمَرجلة: «خسى الجوع!» ويلتقط صوراً لنفسه وهو يقدّم طعاماً للنازحين بإشراف مباشر من محاصِر الجوعى البعيدين عنه جداً.. أكثر قليلاً من بضع مئات من الأمتار.

الكائن الرمادي في القضايا الخلافية محايد، وفي القضايا الاجتماعية مساند، فإذا سمع عن جهة سنّية في باكستان تستهدف الشيعة، أو قمع في إيران للسنّة، كشف أنه لا يفهم بالدين والأديان، وإذا قرأ عن انقلاب عسكري في دولة ما أو صراع انتخابي في دولة أخرى، أكد جهله بالسياسة ودهاليزها.. وعندما يتحول الموضوع إلى الموقف من «داعش» الذي تُجمع عليه القوى المحلية والإقليمية والدولية والمنظمات الشعبية والرأي العام العالمي، يصبح خبيراً في علم الأديان المقارن ويدين «داعش» بشدة. وكذلك في فلسطين، لا هو مع فتح ولا مع حماس، لا مع الجهاد الإسلامي ولا مع الجبهة الشعبية، وعندما يحصل اعتداء إسرائيلي تُجمع على إدانته جماهير شعبنا من المعارضين والموالين، يتظاهر هذا الكائن منددّاً بجرائم الاحتلال.

الكائن الرمادي يناجي ربّه بطريقته الخاصة، فهو يدعو للفقير بهدوء البال لا بتغيّر الأحوال، وللمكلوم بالصبر والسلوان لا بالعدل في الميزان، وللقابع في الأقبية بالفرج لا بصعود الدرج. فدعاؤه محسوب ولا يتلفّظ بما هو غير مرغوب.

معارك الجدران

(نشر في جريدة «المدن» الإلكترونية، 2013/5/16)

في سوريا ما قبل الثورة، لم تكن الجدران أكثر من دفاتر للمجانين، على ما يذهب المثل الشعبي الدارج، أو دفاتر للتسبيح بحمد السلطة، تُخَطّ عليها أقوالٌ للقائدين الخالدين. في سوريا قبل الثورة، لم تكن الجدران أكثر من لوحات إعلانية لأصحاب المنازل الغاضبين يدعون من خلالها العابرين إلى عدم التبول، أو عدم إلقاء القمامة أسفلها، وفي حالات أخرى كانت دواوين للمراهقين يؤكدون فيها حبّاً أبدياً، أو يشكون عبرها غدر المحبوب وخيانته.

الجدران نفسها التي رمزت أيضاً إلى السجن الكبير الذي أحاط بالسوريين لأربعين عاماً، أصبحت أول أماكن الاحتجاج على النظام نفسه، منذ أن خطّ عليها صِبية في درعا عبارات مستقاة من الثورتين التونسية والمصرية، غير مدركين أن عباراتهم تلك ستكون شرارة تشعل نيران ثورة تمتدّ على الأرض السورية.

في الشهور الأولى من الثورة، انتشرت ظاهرة «الرجل البخّاخ»، عبارات مكتوبة على عجل ليلاً تدعو إلى إسقاط النظام وتنادي بالحرية،

تسارع أجهزة الأمن السورية مع اكتشافها صباحاً إلى طمسها وتكتب محلّها عبارات أخرى تمجّد الرئيس. لعبة الكرّ والفرّ هذه استمرت في العديد من المدن السورية، فما إن تنسحب القوات السورية من بلدة أو قرية أو مدينة ما حتى تغزو جدرانها شعارات تدعو للثورة وتناصر الجيش الحر، وبعد أن تعيد قوات النظام اجتياحها، تعمد إلى طمسها مجدداً: «يسقط النظام» – ليلًا، تصبح: «الأسد أو لا أحد» – نهاراً.

الثائرون الذين اتخذوا من بخّ الجدران بشعاراتهم وسيلة للاحتجاج دفعوا أثماناً مضاعفة، فاعتُقل عدد منهم، بينما قضى اثنان على الأقل برصاص النظام، بحسب ناشطين: محمد راتب النمر، في مدينة حمص في شهر تموز (يوليو) من عام 2011، ونور حاتم زهرة، في دمشق في نيسان (أبريل) من العام الماضي.

أشكال جديدة

مع تقدّم الثورة، كان لا بدّ لأشكال الاحتجاج أن تنضج وتتّخذ أساليب جديدة، لم تعرف الثورة السورية «الغرافيتي» إلا بعد مضيّ عدة أشهر على اندلاع الاحتجاجات، سواء «الغرافيتي» القائمة على الرسم المباشر على الحائط، أو «الاستنسل غرافيتي» (الذي يقوم على خلق صورة أو كتابة عبر الورق المقوى ومن ثم نقلها إلى سطح واستنساخها عبر رذاذ الطلاء)، وإن كانت أولى تعبيرات الاستنسل غرافيتي مؤيدة للنظام السوري، على جدران دمشق ومدن سورية أخرى موالية للنظام. ليس غريباً أن تشاهد صورة غرافيتي لشارة قناة الدنيا الخاصة، مذيّلة بكلمة شكراً، طبعاً جرى استنساخ الصورة تحت أعين الأمن السوري وربما بإيعاز منه، القناة التي عملت بشكل ممنهج على تمزيق النسيج

الاجتماعي، واعتمدت التضليل والتهويل والمبالغة بدلاً من الدقة والتوازن والموضوعية، وجدت من يشكرها على جدران النظام.

استولى علم الثورة السورية على النصيب الأكبر من الجدران، في المناطق التي خرج منها النظام السوري، لكن لهذا ثمنه أيضاً، في مدينة داريّا بضواحي دمشق، قامت مدرّعات النظام بهدم سور كامل لمقبرة المدينة نتيجة رسم علم الثورة عليه في شهر تموز (يوليو) الماضي، هذا الإجراء دفع لاحقاً ناشطين في قدسيا إلى مسح رسومات مماثلة على جدران المدينة تجنيباً لها من انتقام مماثل.

في حمص قامت الفنانة السورية الشابة ريما الحموي (اسم مستعار) بتنفيذ أربع لوحات غرافيتي، في العام الماضي، على جدران في أحياء الخالدية ودير بعلبة وحمص القديمة (تعرّض بعضها للدمار نتيجة قصف قوات النظام على هذه الأحياء)، قبل أن تنفّذ لوحة جديدة في حي ركن الدين بدمشق مؤخراً. تُظهر الغرافيتي الأخيرة طفلة تحمل بالوناً وسط القذائف المتساقطة مصحوبة بعبارة «شعب يحترف الحياة كلما أحاط به الموت». لم تضق العبارة كلما اتسعت الرؤيا، في جميع اللوحات التي نفّذتها الحموي، بل وُجدت العبارة والرؤيا معاً، والهدف بحسب ما تقول الحموي هو «إيصال رسالة»، وهو أمر تكرّر مع معظم لوحات الغرافيتي السورية، سواء تلك التي أتت ضمن حملات معينة، مثل «إضراب الكرامة» أو «أحرار خلف القضبان»، أو تلك القائمة على مبادرات فردية مثل «حيطان سراقب»، وهي مجموعة كبيرة من العبارات والرسومات على جدران البلدة الواقعة في ريف إدلب، وطغت فيها الكلمات على الأشكال وشملت حتى الحيطان المهدّمة بفعل القصف.

عرفت السخرية طريقها إلى معركة الجدران، كما عرفتها في أشكال

احتجاجية أخرى على النظام. على جدار في حمص، كُتبت بسرعة عبارة تحذّر من «قنّاص أحوَل»، فيما خُطّت على جدار منخفض في سراقب عبارة مستوحاة من مثل شعبي سوري «حيطانّا قصار ومنعرف بعض». وفي دير الزور كتب أحدهم: «هنا دير الزور وليست دير أبيب». وفي جزء من المعركة خيض على جدران العاصمة اللبنانية بيروت، نفّذ ناشطون سوريون حملة غرافيتي على جدران أحياء في بيروت أواسط آذار (مارس) الماضي، لمناسبة الذكرى الثانية لانطلاق الثورة السورية، اعتمدت على التحريض القائم على السخرية، منها صورة للرئيس السوري بشار الأسد وقد اختفى بعض ملامحه مع عبارة «الشعب يُسقط النظام»، وأخرى اقتصرت على عبارة «لن يسقط بائع الجولان»، وثالثة تقول: «يسقط سيادة الرئيس الدكتور بشار حافظ الأسد».

لم يتحول الغرافيتي حتى اللحظة إلى مسهم فاعل في تشكيل الوعي البصري السوري، لا ساحة في دمشق تشبه شارع محمد محمود في القاهرة أو ساحة القصبة في تونس، لكن تحوّل الغرافيتي إلى علامة مميزة في هذين الحيّزين المكانيّين تطلّب أولاً إسقاط النظام.

أنا السوري

(نشر في جريدة «عنب بلدي»، 2015/6/21)

أنا السوري، أفسدتُ على التيس حفلته، ولم أتردّد كهاملت، قتلت قاتل أبي بدم بارد. دور سانشو لم «يخرط مشطي»، قطعت رأس دونكيشوت وأرسلت سيارات مفخّخة لتفجير طواحين الهواء، أنهيت أربعين عاماً من العزلة، نسفت صخرة طانيوس بعبوة مصنّعة يدويّاً، ثم دستُ على أزهار اللوز وما هو أبعد.

أنا السوري..

لم يحتمل العالم خفّتي واعتبر ثورتي مزحة وحفلة تفاهة، سيرتي الذاتية هي مزيج من الضحك والنسيان، تلقّيت العقاب على جريمة لم أرتكبها، عاملوني كمسخ في الغرف المغلقة، وضعوني في محاكمة على تهمة أجهلها، تهت مع التائهين ووصلت إلى شرق عدن وغرب الله، وأصررت على حبّ بلدي في زمن الكوليرا.

أنا السوري..

مشيت مع الرجال تحت الشمس، وكتبت فصولاً في دفاتر القرباط، كنت طفلاً حتّى في شيطناتي الخبيثة. إقليمياً: أخوض قصة كراهية

مجوسية، وموقعي في شرق المتوسط لعنة أبدية. الأسود لا يليق بي وأغاني «القاشوش» تطربني أكثر من مهيار الدمشقي، في مطبخي المتواضع لا سكاكين لإعداد السلطة بل لجزّ الرؤوس.

أنا السوري لا الطلياني، لم أدخل يوماً بين القصرين، وفضّلت اللعب مع أولاد حارتنا، لم أمتطِ الخيول البيضاء، ولم أعد أميّز بين الحرب والسلام. فجيعتي المستمرة لخمس سنوات ليست أكثر من مشهد عابر، طلبت اللجوء إلى أمريكا والسلاح من سمرقند. أتقنت السير على قدم واحدة وأعيش اليوم في تقاطع نيران.

أنا السوري..

لعبة الأمم حوّلتني كرةً تركلها الأقدام، سرقتُ الجامع ويوم الجمعة وأسرت الإسلام، البراميل الهابطة على رأسي أبلغ دليل على اختلال العالم. لا أكترث للفرق بين نانسي وكارل ماركس، ومأساتي من علامات تصدّع المشرق العربي.

أنا السوري، لم أخن وطني رغم أن قومي جماعة متخيّلة. سأكشف قريباً عن أشياء كنت ساكتاً عنها، لست أميراً صغيراً ولا بطلاً من هذا الزمان، زرعت الأشجار فاغتالوا مرزوق، اغتصبت كان وأخواتها فردّوا باغتصاب طفلتي. أنا من ورق والكبريت في يد المجتمع الدولي. ذنبي الحقيقي هو محاولة الكتابة في التاريخ الراهن.

عن شهيد

(نشر في جريدة «عنب بلدي»، 2015/5/24)

كان الشهيد موسى الطفوري أحد أساطير درعا، هناك حيث الرتابة والملل يدفعان أبناءها لأسطرة العادي واليومي، فالجامعي الذي ألقى تحية على زميلته في كلية بعيدة تأتي أخباره إلى المدينة كزيرٍ لا يُشقّ له غبار، واللاعب الجالس على دكّة الاحتياط في نادٍ رياضي بالعاصمة هو خليفة وليد أبو السل المنتظَر، ومن ورد اسمه في إعلانات «سيرياتيل» للمتأخرين عن دفع الفواتير هو من دون أدنى شكّ رئيس تحرير لإحدى المطبوعات المرخصة حديثاً.

كثيراً ما وردت قصص عن الطفوري، فذاك رآه بأم العين يحمل دراجة نارية بيد واحدة، وآخر يحلف بعرض أخته وطولها أن الطفوري لطم ثوراً فخرّ الأخير صريعاً، وثالث ينقل رواية عن أخيه، لا عن غريب، تؤكد أن الطفوري اقتلع شجرة زيتون بيديه العاريتين (لا سياق ولا مكان ولا زمان لهذه الأحداث الماركيزية، ولا غاية لها سوى إثبات فرادة الطفوري وعظمته)، كان كثر في المدينة يتحدثون عن «إيد الطفوري المشمّعة»، أي عن دمغة حمراء على يده اليمنى تعني أنه ممنوع من ضرب أيّ أحد!

صافحت يده السميكة طفلاً ذات مرة، وأبقيت أصابعي النحيلة قدر الإمكان في راحته لأتأمل مشدّاً من الجلد الأحمر يحيط بمعصمه مؤمناً أن هذا المشدّ هو تلك الدمغة الشهيرة. كان لا بدّ للشائعة أن تأخذ بعداً سياسياً كي تكتمل الأسطورة: شخصان فقط في سوريا يدهما اليمنى مشمّعة بسبب قوتها الضاربة الاستثنائية: موسى الطفوري، وذو الهمّة شاليش – مرافق الرئيس حافظ الأسد، ومن ثم مرافق ابنه الرئيس بشار الأسد.

استشهد الطفوري في أواخر نيسان من عام 2011 خلال محاولة إيصاله المساعدات إلى حيّ درعا البلد المحاصَر حينذاك من قوات النظام، وكان استشهاده أسطورياً بحقّ، فالشهيد، ابن مخيم درعا للاجئين الفلسطينيين، كان على دراجته النارية وخلفه صديقه عندما جرى استهدافهما برصاص قنّاص، لكنه واصل قيادته للدراجة حتى وصلوا إلى حي البلد، هناك لفظ الطفوري أنفاسه الأخيرة، بعد أن اكتشف صديقه أنه استمرّ ممسكاً بمقود الدراجة رغم تلقّيه لثلاث رصاصات في صدره.

لست مؤمناً

(نشر في جريدة «عنب بلدي»، 2015/4/26)

لست مؤمناً، لا سجادة صلاة لديّ، قبوي الرطب يحمل على كتفيه المدينة، قبضتي اليسرى لا تجيد اللكم ويدي اليمنى أستخدمها لأكل المجدرة. لساني سليط، أنا كاذب ماهر، وفمي لا يعرف النفاق، رأسي مسمار حرية مطعوج والعالم مطرقة استبداد، أهوى الاستماع للشتائم البذيئة والشيخ إمام.. لم يشرح لي صدري أحد، ولا أحدّث بنعمة ربي.

أنا لست عبود سعيد، وأمي العادية ليست كأمّه، أمي محجّبة بمانطو، لا هي تملك وشماً على ذقنها، ولا هي تصلح لتمثيل السوريات في الأمم المتحدة. زوجة أخي دلال لا تكترث بأني صحافي ولم تطلب مني أن أخطّ لها ستاتوس، لم يرد اسمي في قائمة أفهم عشرة أشخاص على الفيسبوك، ولم أجرؤ على اقتحام إنستغرام.

لست ناطقاً باسم أحد، ولا أحد ينطق باسمي، والجملة الأخيرة ليست إعلاناً عن فرصة شاغرة، لست من معارضة الكراجات، ولا من معارضة الفنادق، ولا من معارضة الخنادق، أحب عبد الباسط الساروت الداعشي، وأكره اعتدال زهران علوش ومعاذ الخطيب ومنذر خدام.

لا أشجّع برشلونة ولا ريال مدريد، أفضّل تنطيط الكرة الأرضية على قدمي. لا أعرف ماذا يعني اللازورد، ولا أريد أن أعرف. حياتي عادية حدّ الملل، لم أعبر يوماً إلى الشمال المحرّر، هاجرت إلى أوروبا دون مغامرات، لم أخض غمار البحر، لم أمتطِ «بلماً» ولم أضلّ طريقي في الغابات، لم أختبئ في شاحنة على حدود مقدونيا، وفي مطار أمستردام لم يكترث موظف الجوازات بأنني سوري.

أنا الكافكاوي الذي لم يقرأ كافكا، والماركسي الذي لم يقرأ ماركس، والعنفي الذي قرأ تاريخ غاندي، أنا سليل العاديين، لست بدوياً ولا قرباطياً ولا مسحوقاً ولا مهمّشاً ولا مثقفاً ولا نخبوياً، شاهدت أفلام تاركوفسكي ذات مرة ولم أفهمها، ولم أكرر المحاولة. أعشق الكراهية وأمقت الحب، أرتب أحقادي في خزانة قلبي الأسود.. ويوماً ما سأنتقم من العالم.

الاستغراب - أوكسيدنتاليزم في فيسبوك السوريين

(نشر في مجلة «صور»، آذار 2016)

«إذا اتخذنا من أواسط العام الثاني عشر بعد الألفين نقطة للانطلاق محددة تحديداً تقريبياً، فإن الاستغراب يمكن أن يناقش ويحلّل بوصفه الخطاب الموحّد للتعامل مع الغرب، التعامل معه بكتابة ستاتوسات حوله، وإجازة التعليقات عنه والتلييك عليها، ومن ثم وصفه وتحليله وتصفّح صور نسائه واللجوء إليه والاستقرار فيه وتشجيع منتخباته الوطنية.. الاستغراب كأسلوب سوري للسيطرة على الغرب».

أحمد جوناثان، من مقدمة كتاب الاستغراب

بعيد وصوله إلى هولندا إثر رحلة طويلة بدأت من العاصمة الأردنية عمّان، وقادته إلى الجزائر، فليبيا، فالبحر المتوسط، فإيطاليا، ومنها إلى فرنسا، ثم بلجيكا، لينتهي به المطاف في بلد السهول الواطئة، «طحّ» صحفيٌّ من دير الزور «ستاتوساً» معلناً وصوله إلى هدف رحلته الأخير، وواصفاً السهول الممتدة حول المجاري المائية الوفيرة «ولكأنها أشبه بسهول مزروعة بالخضراوات على ضفاف تفرّعات نهر الفرات». ولقد كان على حقّ في وصفه للمكان، خصوصاً من وجهة نظر الديري، فقد

كان الغرب، منذ بدايات القرن العشرين، مكاناً للرومانسية والكائنات الغريبة المدهشة، والنساء الجميلات الشبقات، والذكريات والمشاهد الشابحة، والتجارب الاستثنائية، وكان الآن في طريقه إلى التلاشي.

ربما لم يكن أبو أحمد الإدلبي يقصد سوءاً عندما كان يدافع عن خياره في الإقامة بالدنمارك، رغم الفتوى التي أصدرها الشيخ راتب النابلسي بعدم جواز الإقامة في الغرب، كتب أبو أحمد في تعليق على فيديو محاضرة الشيخ راتب مدافعاً عن الأربطعشر ألف كرون التي يحصل عليها نهاية كل شهر: «والله إني رأيت إسلاماً هنا ولم أرَ مسلمين». استبعد أبو أحمد كل المسيرة الدينية التي مرّت بها شعوب القارة الأوربية عموماً والشعب الدنماركي خصوصاً، لم يكترث للكنيسة وانقسامها، ولا للحروب الدينية وانشقاق مارتن لوثر، والصراع على السلطة البابوية والإصلاح الديني وتطبيق العلمانية، وفرض عليهم رؤيته الدينية الخاصة. بكلمات أخرى فإن الغرب، بسبب الاستغراب، لم يكن، وهو ليس، موضوعاً حراً للفكر والعقل.

«تعوا لهون ولا تردّوا على حدا، عم يعطونا رواتب شهرية وبيوت وحطّوا ولادنا بالمدارس»، الجملة السابقة التي وضعتها أم علي الشاغورية، كتعليق فايسبوكي، لإنهاء نقاش مستعر كان يدور في مجموعة «أفضل طرق التهريب المضمونة – للسوريين حصراً»، التي تضم نحو 150 ألف عضو فقط لا غير. أم علي المقيمة في السويد منذ ثلاثة أشهر لم تكن بحاجة إلى المزيد من الوقت لتطلق حكمها النهائي على الدولة الإسكندنافية، وهي إن كانت قد حوّلت مفهوم «المساعدات الاجتماعية» إلى «راتب شهري»، فإنها لم تقم بأكثر من محاولة لهدم المفاهيم الغربية وتحويلها إلى مفاهيم سورية وصولاً إلى استبناء هذا الغرب وامتلاك السيادة عليه. دعت أم علي السوريين إلى

القدوم جماعات وأفراداً، غير مكترثة لا بسكان البلاد الأصليين ولا بثرواتهم ولا بضرائبهم، فمنذ متى كان لهؤلاء الغربيين وجود أو قيمة، إلا من باب ما قد يقدمونه لنا، نحن السوريين، «مركز هذا العالم».

بعد أسابيع فقط من حصول سلمان الحوراني على إقامة دائمة في ألمانيا، أنشأ صفحة فيسبوكية بعنوان «سوريون ضد العنصرية الألمانية»، وكتب في تعريف الصفحة: «لأن ألمانيا دولة ذات طبيعة نازية، وشعبها يعاني من آفة العنصرية فإن علينا أن نحارب هذه الآفة». لم يكتفِ سلمان بالتعميم، بل تجاوز ذلك إلى التعامل مع الألمان وعاداتهم كمسألة جوهرانية ثابتة، لا تاريخية، وهي العادة التي ذهب إليها سوريون كثر قبله، بتقديمهم لخلاصة أبحاثهم حول الشعوب الغربية بالطريقة ذاتها، إذ يبدي السوري دائماً اندهاشاً من هؤلاء الغربيين وكأنهم كتلة واحدة مصمتة متماثلة الخواص، فهم قد أدهشوه بـ«عنصريّتـ»هم، أو «لطفـ»هم، أو «برود»هم، أو «تعاطفـ»هم... الخ.

ملامح من ثورتنا الضاحكة

(نشر في جريدة «العربي الجديد»، 10/3/ 2015)

«على عكس التراجيديا التي تعبّر عن توحّد الإنسان مع واقعه المأسوي، يعبّر التهكم عن اتساع المسافة التي تفصل الذات عن موضوعها، لتصير النكتة تعبيراً عن تحرّر الإنسان من سطوة واقعه المهيمن عليه. في هذا المعنى، يصير التهكم حالة مقاومة، لأنه يخلق مساحةً لغوية جديدة يمكن للتعددية فيها أن توجد، كما يمكن للفرد فيها أن يقاوم تماهيه مع دوره الذي يلعبه ومع واقعه الأسود».

نبراس شحيد

«أكلت حجر على راسي.. بس معليش كلّه فدا الوطن»، يقول شاب درعاوي ضاحكاً بخفّة خلال احتجاجات الأيام الأولى للثورة السورية، ربما كانت هذه الجملة، التي قالها شاب مجهول الهوية لا يظهر أمام الكاميرا، هي أولى التعبيرات الساخرة الموثقة في الثورة، الثورة التي ترافقت فيها الابتسامة مع الدماء منذ لحظاتها الأولى. فبينما كان رصاص الأجهزة الأمنية ينهمر على المتظاهرين في الطريق الفاصل بين منطقتي «درعا البلد» و«درعا المحطة»، انسلّت مجموعة

من المراهقين الثائرين خلف خطوط عناصر الأمن مستغلّين انشغالهم ليركبوا سيارة إطفاء مركونة جانباً، كانت حاضرة للإسهام بقمع الاحتجاجات، ويقودوها بعيداً وسط القهقهات الممزوجة بالخوف.

عرفت السخرية طريقها إلى مختلف تعبيرات الاحتجاجات الصوتية والبصرية في سنوات الثورة السورية الأربع، بدءاً بالهتافات واللافتات، مروراً بالغرافيتي والغرافيك والرسوم الكاريكاتيرية، وصولاً إلى الأغاني والمقالات والمطبوعات، وليس انتهاء بالصفحات والمجموعات الافتراضية على وسائل التواصل الاجتماعي، أو حتى في أشرطة فيديو وأعمال وثائقية وسينمائية قدّمها فنانون مكرّسون.

في البدء كانت الحنجرة

هتف السوريون: «يلعن روحك يا حافظ!» بعد أشهر على اندلاع المظاهرات، وبعد نحو أحد عشر عاماً على وفاة رئيسهم السابق حافظ الأسد، كان الهتاف يجمع السخرية المرّة والتحدّي والنقمة على الماضي معاً، ثم أخذه متظاهرو بلدة «كفرنبل» الإدلبية إلى مرحلة أبعد: إضفاء لحن عليه من الموسيقا الكلاسيكية وغنائه كجوقة أوركسترالية في الهواء الطلق.

الانتقال المؤلم للاحتجاجات من الطابع السلمي العام إلى العسكرة ترافق هو الآخر مع هتاف ساخر: «بلا سلميّة بلا بطّيخ.. بدنا طاخ وبدنا طيخ!» وإن لم تصدح به الحناجر، على عكس سابقه، إلا على نطاق محدود. رويداً رويداً طغت الهتافات ذات المضمون الإسلامي على ما تبقى من مظاهرات. لكن قبل تحول الثورة إلى الكفاح المسلح لطالما سخر المحتجّون من الاتهامات التي روّجها

النظام وأجهزة إعلامه بأن المتظاهرين ما هم إلا عصابات سلفية مسلحة، يبقى عالقاً في الذاكرة ذاك المقطع اليوتيوبي الذي صوّره شبّان في مدينة حمص وهم يستخدمون حبات من الباذنجان محاكاة للقنابل اليدوية، وأنابيب المدافئ المنزلية كقاذفات آر. بي. جي رمزية، وحبّات الباميا كرصاصات وهمية.

الهتافات لم تكن التعبير الصوتي الوحيد في الساحات السورية، غنّى المحتجّون متّكئين في الغالب على التراث محوّرين ألحانه إلى أغانٍ ساخرة حيناً وجادّة أحياناً. مدينة حماة التي عانت طويلاً من حكم البعث الأسدي الدموي أطلقت أغنية «جنّوا جنّوا البعثية.. لمّا طلبنا الحرية!»، كان المحتجون يرقصون وهم يغنون: «نحنا مطالبنا حق (حأّ).. إن قلت إي وإن قلت لأ! وزتّ وراقك خلص الدقّ.. ويالله لمّوا البرتيّة.. الثوار حلقولك عالصفر.. وهلأ عم نحفر لك قبر.. وزبّطلي دقنك والشعر.. ويالله كتوب الوصيّة!». لا يمكن طبعاً التحدث عن أغاني مدينة حماة الاحتجاجية الساخرة دون التوقف عند منشدها الأشهر إبراهيم القاشوش، الذي تضاربت الأنباء حول مصيره، قاد القاشوش المظاهرات الأكبر في حماة وهو ينشد الترنيمة الأيقونية: «يالله ارحل يا بشّار!»، نظرة سريعة إلى مقاطع الترنيمة تبدي للعيان فوراً تلك العبارات الشعبية خفيفة الدم التي تتألف منها: «يا بشّار ويا كذّاب، تضرب أنت وهالخطاب، الحرية صارت على الباب، ويالله ارحل يا بشّار!»، أو «ويا بشار حاجه تدور، ودمك بحماة مهدور، وخطأك مانو مغفور، ويالله ارحل يا بشار!». اجتاح الجيش السوري حماة لاحقاً، فتوقفت الأغنية وغابت الابتسامة.

لم تقتصر الأغنية الساخرة على تلك الأغاني الشعبية، بل حاول فنانون سوريون أن يدلوا بدلوهم أيضاً، فقدمت فرقة «أبطال موسكو

الأقوياء» أغنية «بدنا نعبّي الزنزانات» بعد نحو ثلاثة أشهر فقط على أولى المظاهرات، أما مؤسسة «بدايات» فقدمت أغنية «بالذبح جيناكم»، ومن ثم شريط «بحبّ الموت»، وهما علامتان بارزتان في تحول السخرية إلى سخرية مزدوجة تستهدف النظام من جهة، والتنظيمات الإسلامية الجهادية من جهة أخرى.

هل أتاك حديث اللافتات؟!

لعبت اللافتات الساخرة دوراً بارزاً في التعبير البصري عن الثورة، منذ أن بدأت الاحتجاجات تجد طريقها إلى التنظيم، فحمل المتظاهرون شعارات وكراتين لمّاحة وذكية، من الصنمين في درعا جنوباً، إلى عامودا وبنّش شمالاً، مروراً بالزبداني وريف حماة. فيما تصدّرت هذا المشهد بلدة كفرنبل في ريف إدلب، البلدة التي كانت، وما زالت رائدة السخرية الثائرة في سوريا، بلافتاتها وكاريكاتيراتها المستمرة حتى اليوم، كواحدة من آخر التعبيرات المدنية المستمرة داخل البلاد. أضحت لافتات البلدة ورسومها الهزلية التي لا تكلّ علامة متميزة منذ مرحلة مبكرة من عمر الثورة، منذ ما قبل المطالبة «بزيادة عدد الدبابات في كفرنبل للتخفيف عن حمص المنكوبة» – كما ذكرت لافتة عام 2011، حتى الكاريكاتير الذي يُظهر مقاتلين غارقين في الصقيع للسخرية من خطة المبعوث الأممي دي ميستورا لتجميد القتال في شباط عام 2015. من الإسهام البصري اللافت للبلدة الإدلبية في المنتَج السوري الساخر كان الشريط اللامع الذي ظهر بُعيد الصفقة الكيماوية الغربية مع النظام السوري بعنوان «الثورة السورية في 3 دقائق».

كان للجدران السورية أيضاً نصيبها من رسم الابتسامات والمقاومة

عبر الكوميديا، على جدار في دير الزور، كتب أحدهم عقب اجتياح لجيش النظام: «هنا دير الزور وليست دير أبيب»، بينما حذّر آخر على جدار حمصي من «قناص أحوَل»، كما خُطّت على جدار منخفض في بلدة «سراقب» عبارة مستوحاة من مثل شعبي سوري: «حيطانّا قصار ومنعرف بعض».

ضحك افتراضي

واكبت مواقع التواصل الاجتماعي الثورة السورية منذ يومها الأول، وكما في وسائل التعبير والوسائط الأخرى، كان للسخرية نصيب بارز هنا أيضاً، كتب آلاف السوريين منشورات ساخرة على صفحاتهم الشخصية على موقع فيسبوك، فيما بادر آخرون إلى إنشاء صفحات ومجموعات مكرّسة لتفكيك خطاب النظام الإعلامي والهزء منه، بعض هذه الصفحات غابت عن جدران الموقع الأزرق لاحقاً فيما ما يزال بعضها مستمراً إلى الآن، من أبرز الصفحات السورية الساخرة «مغسل ومشحم حمص الدولي للدبابات»، و«الثورة الصينية ضد طاغية الصين»، و«سيادتو»، و«برازر، دعشوك»، و«شعارات راسخات»، وغيرها. في العالم الافتراضي امتدّت السخرية السورية فطالت بشكل أوضح الأداء الكارثي لمختلف هيئات المعارضة السورية وقادتها والفصائل المسلحة وحتى الشخصيات المستقلة و«نجوم» الثورة البارزين. بينما استغل آخرون ما أتاحه الفيسبوك لتقديم فيديوهات قصيرة كوميدية، كثائر والي، وإيهاب يوسف، وغيرهما.

ومع تراجع القدرة في الفضاء العام الحقيقي على أداء الأدوار المدنية التي لعبها في السابق خلال مسار الثورة، للعديد من الأسباب، تحولت مواقع التواصل الاجتماعي إلى ميدان وحيد في بعض الأحيان

للتعبير المحتجّ، عابساً كان أم ضاحكاً. خلال مهزلة الانتخابات الرئاسية التي أدارها نظام الأسد العام الفائت، نظّم ناشطون وإعلاميون سوريون حملة عبر موقع يوتيوب بعنوان «سورية تنتحب»، نشروا خلال تسعة فيديوهات حاكت بشكل متهكّم الإعلانات الترويجية للانتخابات التي قدمها فنانون مؤيدون للنظام. على يوتيوب أيضاً، حاول سوريون كثر استنساخ تجربة الإعلامي المصري باسم يوسف، في تجارب تباين مستواها، وكان من أبرزها سلسلة «بسيطة».

السخرية مستمرة

في الذكرى الرابعة للثورة السورية، لم يعد وقع الضحكة السورية طاغياً، فالثورة الواقعة بين فكّي الجهاديين والنظام فقدت كثيراً من ألقها، فيما غادر آلاف من الناشطين البلاد، ويقبع عشرات الآلاف من السوريين في السجون، منهم على سبيل المثال رسام الكاريكاتير أكرم رسلان، والسيناريست عدنان الزراعي، بينما تراجعت المظاهرات وأساليب الاحتجاج المدنية الأخرى حدّ الغياب، وعلى الرغم من كل هذا ثمة من يحاول الصمود ورسم الابتسامات، بلدة «كفرنبل» مثالٌ يُحتذى، بينما يبقى العالم الافتراضي زاخراً بالمحاولات.

حلّت عليك اللعنة!

(نشر في جريدة «عنب بلدي»، 2015/3/9)

وأنت تقود دراجتك الهوائية على أسفلت من الأجساد، وأنت تستخدم أوتار حنجرة أبيك المهترئة لغيتارك الإلكتريك، وأنت تنزعج من صوت قذيفة تحلّق من قاسيون باتجاه ببيلا، وأنت تهتزّ على وقع انفجار في جوبر، البعيدة كفيتنام القريبة كمانهاتن، وأنت تتمرجل على وزير الكهرباء، وأنت تلقّن الضحية درساً بالسلم الأهلي، وأنت ازدواجي كسيف بحدٍّ واحد، وأنت تريد للقتلة أن يمرّوا بلا عقاب، وأنت «باحث» علميّ بهوىً نازيّ.

حلّت عليك اللعنة!

وأنت هلعٌ على مصير الخبز لا الخبّاز، وأنت وطنيٌّ للعظم عندما يلعب المنتخب، وغير مكترث إذا اعتُقل أحد لاعبيه، وأنت تستغل ما أتاحته لك الثورة كي تطعن بها، وأنت تسأل عن هوية المجرم قبل إدانته، وأنت تستفسر عن هوية الضحية قبل التعاطف معها، وأنت ترفض الحديث عن الضحايا تجنّباً للخوض في «السياسة»، وأنت تستذكر مجازر الأرمن وتتناسى مجزرة حماة، وأنت ضد جرائم «الشرف».. مع جرائم الإبادة، وأنت مع قصف المدنيين.. أي مدنيين..

حلّت عليك اللعنة!

وأنت تشارلي إيبدو ولست أكرم رسلان، وأنت منتفض بسبب رسم كاريكاتوري ومستكين إثر قطع رأس، وأنت تؤيد دولة الخلافة من ستوكهولم أو الرقة، وأنت تؤيد الديكتاتورية الأسدية من أمستردام أو معلولا، وأنت معجب بفلاديمير بوتين من باريس، وأنت ضد الوهابية مع ملالي قم.. أو العكس، وأنت تحتسي النفط الإيراني وتشمئز من البترول الخليجي، وأنت مع فلسطين وليس مع الفلسطينيين، وأنت مع «المقاومة» ضد مخيم اليرموك.

حلّت عليك اللعنة!

وأنت عنفيّ في كوباني سلميّ في ريف حلب، وأنت ملحد بانحيازات طائفية، وأنت مذعور من جبهة النصرة متواطئ مع أبو الفضل العباس، وأنت ثائر ضد الأسد مترحّم على صدام حسين، وأنت تتمترس خلف ما تعرف في قرارة نفسك أنها أكاذيب، وأنت تناقش الكيفية التي يجب أن ينفّذ بها الحد، وأنت تزعق بعد هاون على دمشق وتخرس بعد برميل على دوما، وأنت تقرأ عباراتي هذه وتشعر أنك المعنيّ بها.

قميص منتخب الوطن

(نشر في مجلة «صور»، شباط 2015)

كان نزار كردغلي في السادسة والعشرين من عمره عندما وصل إلى قمة مجده الكروي. حينذاك، كان يحمل شارة الكابتن لمنتخب سورية دون 19 سنة الذي يستعدّ لتصفيات بطولة آسيا للشباب، راج في الإشاعات أن اختيار كردغلي قائداً للفريق جاء بوصفه الأكبر سناً، فيما معدّل أعمار باقي اللاعبين 23 سنة، بينما قالت إشاعة ثانية إن كردغلي مدعوم لأنه ابن أخت أبو تالا، رئيس مفرزة الأمن العسكري في معرة النعمان.

السبب الحقيقي وراء اختيار نزار لتولّي مهمة القيادة كان ولاءَه الشديد للقميص الذي يرتديه، فكردغلي، الذي لطالما هتفت له الجماهير من على المدرجات «ارفع إيدك كردغلي!»، ثم هتفت بعد مرور خمس ثوانٍ على رفعه ليده استجابة لمناشدتهم: «نزّل إيدك خرّيتها!»، هو اللاعب الوحيد الذي يرفض مبادلة قميصه مع أيٍّ من اللاعبين الآخرين بعد نهاية المباريات. وهي العادة الدخيلة على تقاليد مجتمعنا ورياضتنا، والتي حذّر منها الدكتور ماجد شدود، رئيس مكتب الرياضة والشبيبة والطلبة القطريّ في حزب البعث العربي الاشتراكي.

لم تكن مناسبة واحدة تلك التي رفض فيها نزار بشدة التخلي عن قميص الوطن، فبعد المباراة الشهيرة التي جمعت نادي الجيش السوري ومنتخب الاتحاد السوفييتي الصديق، على أرض ستاد «البلاشفة» الدولي في موسكو في كانون الثاني من عام 1983، وانتهت بفوز الأصدقاء (4-0)، توجّه حارس المنتخب السوفييتي الشهير ديسابيف إلى كردغلي بعد نهاية اللقاء عارضاً عليه تبديل قميصه، فهو اللاعب الوحيد الذي نجح في التسديد باتجاه المرمى السوفييتي، وعلى الرغم من أن تسديدته ذهبت بعيداً عن المرمى، وجرى إحضار الكرة حينذاك من المدرجات، إلا أن ديسابيف حدس أن نزار هو نجم هذا الفريق الاشتراكي الصديق، ولكن ثقته المطلقة، بأن كردغلي سيفرح بعرض مبادلة القمصان، تحوّلت إلى خيبة أمل مطلقة بعد رفض الأخير للعرض، لأنه يشعر بالبرد. بعد ثلاثة أيام على وصول خبر الهزيمة، عنونت صحيفة «الموقف الرياضي» صدر صفحتها الأولى: «كردغلي يتمسك بقيمص الوطن بعد مباراة رجولية».

في تصفيات كأس العالم 1986، كان منتخبنا الوطني يخوض المباراة الفاصلة المؤهلة للمونديال في مواجهة نظيره العراقي، والعلاقات السياسية بين البلدين في أسوأ حالاتها، فالأسد السنّي (صدّام حسين) والأسد العلوي (حافظ الأسد) يتنافسان على لقب «الدولة الأكثر ديمقراطية في الشرق الأوسط». خسر المنتخب السوري المباراة الفاصلة، يومذاك رفض نزار مبادلة قميصه مع نجم المنتخب العراقي آنذاك أحمد راضي خوفاً من أن يطجّه أحد زملائه في المنتخب تقريراً لـ«أمن الدولة»، بتهمة الانتماء لبعث العراق. العنوان الذي خرجت به صحيفة الاتحاد آنذاك: «خسرنا التأهل وكسبنا قميص منتخب الوطن».

المرة الوحيدة التي خلع بها نزار قميصه كانت بعد فوز سوريا بالميدالية الذهبية لمسابقة كرة القدم في دورة ألعاب البحر الأبيض المتوسط، ولخلع القميص هنا قصة أخرى، كان منتخبنا الوطني قد فاز في الدور الأول على منتخب أشبال تركيا، وفي الدور نصف النهائي على منتخب حارات اليونان، وسيواجه في المباراة النهائية منتخب طلائع فرنسا، الأعصاب مشدودة والأدرينالين بلغ عنان السماء، فمنتخب الطلائع الفرنسي يرفض الاستسلام بسهولة، والنتيجة هي التعادل الإيجابي، احتسب الحكم ضربة جزاء للمنتخب السوري أكّد عدنان بوظو أنها صحيحة، وانبرى كردغلي لتنفيذ الركلة مسجّلاً هدف الانتصار، بعد الهدف خلع كردغلي قميصه للمرة الأولى في حياته، كان يركض كالمجنون ويبكي، استغرب زملاؤه شدة فرحه، فهو لطالما سجل الأهداف من ركلات الجزاء، أما هو فكان يركض فرحاً لسبب آخر، فقد نجا من الصفعة المحتملة التي كانت تنتظره من مدير المنتخب إذا فشل في التسجيل. بعد يوم خرجت صحف «البعث» و«الثورة» و«تشرين» بمانشيت مشترك بالخط العريض: «برعاية الرئيس الأسد.. منتخبنا الوطني بطلاً لدورة المتوسط».

اختتم نزار كردغلي مشواره مع المنتخبات الوطنية في بداية التسعينيات، بعدما بلغ من العمر ثلاثين عاماً، كان حينذاك يحمل شارة الكابتن للمنتخب الأولمبي دون 23 سنة الذي يستعد لتصفيات أولمبياد برشلونة 1992، وبعد الخروج المشرّف من التصفيات قرّر الاعتزال. ثم كشف في لقاء صحافي مطول مع «باتريك سيل» سرّ تمسكه الشديد بقميص منتخب الوطن: «عندما كنت ألعب لناشئي نادي المحافظة، تمزّق قميصي بعد حالة شد قوية من مدافع فريق الفتوة خلال مباراة ودية، حينئذٍ اضطررت لإكمال المباراة بالشيّال لعدم توفر قميص

بديل، كان ذلك درساً حفر في وجداني عميقاً أهمية الوفاء للقميص الذي ترتديه».

بعد عامين حاول رئيس اتحاد كرة القدم إقناعه بالعدول عن قرار اعتزاله كي يلعب مع المنتخب السوري للشباب الذي سيحرز لاحقاً كأس آسيا، لكنه رفض بشدة، مؤكداً أنه اعتزل بعد وصوله إلى قمّة المجد الكروي ولن يرجع عن هذا القرار.

مقابلة المنحة الحاسمة

(نشر في «سمارت أونلاين»، 2015/1/10)

أنهيت استعداداتي للمقابلة السكايبية، ارتديت قميصاً سماوياً مع سترة رسمية كحلية وربطة عنق زرقاء تتخللها خطوط كحلية، الجزء الأسفل من القميص أخفيته تحت بيجامتي من ماركة ديادورا، وواصلت انتعال شحاطتي المنزلية من ماركة زنّوبة. تأكدت من أن حاسوبي المحمول مشحون بما فيه الكفاية. للتأكد من وضع الإضاءة أجريت اتصالاً سكايبياً سريعاً، متذرّعاً بشوق عارم، بأخي اللاجئ في السويد، وبمجرد أن أكّد لي أنه يراني بوضوح أنهيت الاتصال، وضعت كأساً من الماء إلى جانبي، وقضيت اللحظات المتبقية من الانتظار في الصلاة على النبي والاستغفار.

ما هي إلا لحظات حتى كان حساب السكايب يرنّ، خفق قلبي بقوة وبدأت يدي تتعرّق من الارتباك، لكنني تذكرت مقولة «الشعب القادر على إسقاط بشار الأسد قادر على إسقاط ألف بشار»، فاستعدت ثقتي بنفسي وشيئاً من إيماني وتوكلت على الله وباشرت المكالمة، كان يظهر على الجانب المقابل من الاتصال رجل أشقر في أواسط الأربعينيات تقريباً بزيّ كاجوال، تجلس إلى جانبه امرأة أصغر سناً

تضع نظارات طبية وترتدي بلوزة سوداء، شعرها يصل إلى ما قبل كتفيها وعيناها تخفيان أكثر مما تقولان.

– مساء الخير مستر زوبي.

– مساء النور.

– تبدو أنيقاً مستر زوبي.

– أفضّل أن تدعوني باسمي الأول، ملاذ لو سمحت.

– هل يمكن أن أدعوك مال؟

– بكل تأكيد.

– حسناً، كما تعلم، اسمي السيد غولد سميث، وأنا أمثّل جامعة غولد سميث الواقعة في منطقة غولد سميث (يقهقه)، مفارقة مضحكة أليس كذلك؟

أحاول قدر الإمكان التحكم بعضلات وجهي كي أبدو باسماً، وأصدر صوت قهقهة أكتشف بعد ثوان أنها أقرب إلى صهيل حصان.

– تشرّفت بك سيد غولد سميث، نعم، ثمّة مفارقات كهذه في هذا العالم الغريب، أنا مثلاً من بلد اسمه سوريا الأسد، والرئيس اسمه بشار الأسد أيضاً.

– لنبدأ بالحديث عن المنحة، ماذا ستفعل بمجرد الانتهاء من الدراسة لدينا مستر زوبي؟

– سأعود إلى بلدي بكل تأكيد للمساهمة في تطويرها ونقل قيم الحداثة إليها.

– هل يمكن لك أن تحدد أكثر؟ ماذا ستفعل في الجانب الإعلامي تحديداً، مجال دراستك وعملك؟

– سأساهم في نشر قيم الموضوعية والدقة والحياد والتوازن في ميدان الإعلام المحلي، سيد غولد سميث.

– يبدو الجواب عاماً بعض الشيء، أقصد أليس هناك من مسألة محددة تنوي العمل عليها بعد إنهاء دراستك؟

أرشف عدة رشفات من الماء محاولاً كسب الوقت.

– بكل تأكيد سيد غولد سميث، أعكف حالياً على إعداد تطبيق للهواتف الذكية اقتبست اسمه من فيلم «ديزني» الواسع الشهرة «فروزن»، سيكون بمقدور اللاجئين السوريين استخدامه للإبلاغ عن حالات الوفاة التي تحصل في المخيمات نتيجة تجمّدهم من البرد.

– (بنبرة صوت أعلى تدل على الحماسة) فكرة رائعة!

– شكراً.

– (يقلب في مجموعة أوراق أمامه ثم يواصل حديثه دون أن ينظر إلى الشاشة)، تملك سيرة ذاتية مثيرة للاهتمام مستر زوبي، (يستأنف تحديقه على الشاشة) لننتقل إلى الجانب العملي، إذا كنت تمشي في الصحراء وشاهدت مواطنين شرق أوسطيين يتبادلان إطلاق النار أحدهما على الآخر، ماذا تفعل كصحافي؟

– أضغط على زر التسجيل في كاميراتي فوراً لتسجيل الحادثة، وأحاول الحصول على تصريح من كلا الجانبين، لضمان التوازن في الطرح الإعلامي.

– وفي حال سقط أحدهما جريحاً؟

– أقترب منه أكثر للحصول على لقطات قريبة وواضحة.

– بيرفكت، وماذا إذا كان يلفظ أنفاسه الأخيرة؟

– (أتنحنح) سأحرص على تسجيل هذه اللقطات بشكل كامل، سيكون سبقاً صحفياً مميزاً لمؤسستي الإعلامية.

– عظيم، عظيم، نسيت أن أقدم لك الآنسة مينشن، منسّقة بدوام

جزئي بين جامعتنا والإم آي 6، وتعمل بعد الظهر سائقة تاكسي، تودّ هي أيضاً أن تطرح عليك بعض الأسئلة.

(يدور الحوار الثنائي الآن بيني وبين الآنسة مينشن التي توجّه أسئلتها كزخّة من رصاص بندقية كلاشينكوف).

– هل أنت إرهابي؟

– لا.

– هل سبق لك أن تلقّيت تدريباً مع مجموعة إرهابية؟

– لا.

– هل سبق أن دعمت تنظيماً إرهابياً بالقول أو بالفعل؟

– لا.

– هل حدث أن تعرّفت بشكل شخصي على إرهابيين؟

– لا.

– هل سبق أن صافحت إرهابياً؟

– لا.

– هل حدث أن مررت بجانب إرهابي؟

– لا.

– هل سبق أن تعاطفت مع أي جهة إرهابية؟

– عندما كنت طفلاً أخرق، أُعجِبت بمنظمة «إيتا» الباسكية، لأنني كنت أفكر أن الباسك وحوران تتشابهان وتستحقان الحكم الذاتي، كما كان فريق «أتلتيكو بلباو» يذكّرني بنادي الشعلة الذي..

– (مقاطعةً) هل تواصلت مع هذه المنظمة بأيّ شكل من الأشكال؟

– لا.

- هل هذه المنظمة أصولية إسلامية؟
- لا، هي منظمة إسبانية انفصالية.
- هل أعضاؤها من المهاجرين المسلمين؟
- لا.

تلتفت الآنسة مينشن إلى السيد غولد سميث وتومئ له برأسها دلالة على انتهاء أسئلتها، يشكرني السيد غولد سميث على وقتي، وينهي المكالمة متمنياً لي التوفيق بالحصول على المنحة.

صورة الجحيم والأمل

(نشر في «يوميات مصورة من أجل سوريا»)

«التصوير بالنسبة لي هو إحساس، عينك تلتحم بالعدسة، تصبحان شيئاً واحداً وترى العالم أمامك ضمن إطارات»، هكذا يصف محمد العبد الله علاقته بالكاميرا، ابن الحادية والثلاثين يقيم في منطقة «الغوطة الشرقية» بريف دمشق، التي يحاصرها النظام السوري حائلاً دون دخول الغذاء إليها، وقاطعاً عنها الكهرباء ومياه الشرب.

محمد، الناشط السلمي والمعتقل في مرحلة مبكرة من عمر الثورة السورية، لم تكن لديه أي خبرة احترافية سابقة في عالم التصوير، نقطة البداية هي سنة 2012، فالمحتجّون كانوا شيئاً فشيئاً يتجهون إلى حمل السلاح لمواجهة عنف النظام المفرط. «أنا أكره السلاح، أما التصوير فينقل الصورة الصحيحة، الصورة الواحدة قد تنقل ما ينقله فيديو يتجاوز الثلاثين دقيقة، كما أنها تحجز مكانها في الذاكرة.. حدث أن قضى شبّان أمام عيني، وطُلب مني حمل بنادقهم، تعرّضنا لإطلاق نار وكمائن، لكنني لم أردّ على مصدر النيران أبداً».

اكتسب محمد خبرة معقولة عن طريق مساعدة مصورين سوريين

محترفين، قبل أن يطورها بشكل كبير إثر مرافقته للمصور الصربي الشهير غوران توماسيفتش خلال تغطية الأخير للأحداث في سوريا. وهو اليوم يجمع بين التصوير ومهام إعلامية في مكاتب إغاثية وطبية بالغوطة.

كثيرة هي الصور القريبة من قلب محمد، إحداها لمُسِنّ ثمانيني في ريف دمشق وهو يقطع ما تبقى من جذع شجرة بهدف الحصول على حطب له ولزوجته العجوز، يعلق عليها: «هذه الصورة تروي الكثير بالنسبة لي، أنا أحب الشجر، الشجر هو الحياة، عندما يضطر رجل في أواخر عمره أن يقتلع شجرة في أواخر عمرها، فهذا دلالة على الموت الذي يحوم في المكان». مُسنّ آخر، يحمل تذكاراً في يده عليه صورة لرئيس سوريا السابق حافظ الأسد. للتذكار قصّته مع المسنّ، خلال اعتقاله وتعذيبه من قبل أجهزة أمن النظام السوري، أعطاه أحد رجال الأمن التذكار وقال له إن عليه وضعه على رأسه بعيد الإفراج عنه. التزم المسن بالأوامر مع تغيير طفيف: وضع التذكار على رأس حماره.

أصيب محمد مرتين، الأولى خلال وجوده في منطقة اشتباك، إثر سقوط قذيفة هاون قربه، ما سبب له أربعة كسور عدا جروح مختلفة بسبب الشظايا، تجدد أحد كسوره نتيجة سوء الخدمات الطبية، ثم تعرضت ركبته لكسر ثالث إثر حادث سير أثناء إجلاء إحدى الجبهات. عشرة أشهر تقريباً مرت على محمد منذ الحادثة، إصابته بحاجة إلى عمل جراحي لا تتوفر مستلزماته في المنطقة المحاصرة. لم تتوقف مصائبه هنا، النقص الحاد في الغذاء أدى إلى معاناته لعدّة أشهر من التهاب في أعصاب اليد أوقفه لفترة عن التصوير.

يوضح المصور الشاب: «لم أعد قادراً حتى على الضغط على زر التصوير، كنت في حالة نفسية سيّئة، سبق لي أن قاومت كل إصاباتي

السابقة، مستخدماً العكاز ويدي اليسرى بدلاً من اليمنى، لكني خلال معاناتي من التهاب الأعصاب، أصبحت عاجزاً عن التقاط أي صورة». كيف انتهت معاناته من الالتهاب؟ عبر لجوء أطباء وصيدلانيين إلى تعديل بعض الأدوية المخصصة لعلاج الأبقار وتحويلها إلى مضادات التهاب صالحة للاستخدام البشري.

لصورة أخرى مكانة كبيرة لدى محمد: طفل ميت بُعيد استخدام النظام السوري للسلاح الكيماوي، يخرج الزبد من فمه فيما تغيّر لون جلده. «في تلك اللحظات عشت حالة من الفوضى، فوضى إنسانية، جثث ومصابون في الشوارع، الجميع يصرخ، دخلت إلى نقطة طبية، رأيت الأطفال الصغار بثياب النوم، للوهلة الأولى خلتهم نياماً، ثم أدركت أن هؤلاء قد فارقوا الحياة، كنت أرتجف وأبكي وأصور». يقول محمد ويضيف: «شعرت بالمسؤولية، كان عليّ أن أنقل الصورة، أن أوثّق الشهداء الذين قضوا بالسلاح الكيماوي، كنت ما زلت أعاني من إصابتي ولا أستطيع ثني قدمي، اضطررت بهدف أخذ لقطة قريبة أن أستلقي بجانب جثة طفل، ومن ثم التقطت الصورة. لذلك أشعر بالضيق إذا قال لي أحدهم إن صوري حلوة».

الموت في الغوطة في كل مكان، صورة بالغة القسوة لجثة أنثى كلب وجراؤها يحومون حولها، التقطها محمد في بلدة «مرج السلطان»، «كوكينا هي كلبة صديقي، قضت بشكل مفاجئ ربما لعدم قدرتها على إطعام صغارها، ماتت بعد أن أرضعتهم للمرة الأخيرة، بينما استمر الجراء في التهام جوفها».

«بعيد تفجير سيارة مفخخة في سوق شعبي بدوما، كان المشهد رهيباً، سيارات تحترق، بقايا بشرية، ومصابون ودماء، كنت منشغلاً بالإسهام في الإطفاء حيناً والتصوير حيناً، كان ثمة طفل يجثو بجانب

سيارة محترقة، غير مبالٍ بالصراخ والفوضى العارمة، انشغل بجمع حبات خوخ ملطخة بالدماء والتهامها بنهم». يختصر محمد المشهد بالقول إن هذه كانت «صورة الفوضى والجحيم الإنساني الذي نعيشه».

ليس الموت والفوضى وحدهما ما تنقله عدسة محمد، للأمل مكانه أيضاً، يلتقط مشاهد من مشروع زراعي يتحدى الحصار الغذائي. صورة ثانية لطفلتين تكتبان واجباً مدرسياً على ضوء شحيح لمصباح احتياط كهربائي، فيما العتمة تستبدّ بكل ما يحيط بهما. لقطات أخرى لأطفال يشاركون في فعاليات تعليمية وترفيهية رغم الحصار. «هؤلاء هم مستقبلنا، إذا لم نعتنِ بهم، سيضيع كل شيء.. الأطفال الصغار هنا لا يعرفون ما هو الموز ولم يسبق أن رأوه في حياتهم».

«إيمان» صورة أخرى لطفلة من بلدة «العتيبة» تبتسم للعدسة وتقبض بأناملها الصغيرة على صورة شخصية مهترئة لوالدها، هي الذكرى الوحيدة المتبقية من الأب الذي قضى دون أن تعرف إيمان وأشقاؤها أن والدهم قد رحل إلى الأبد، وعد محمد إيمان بطباعة صورة والدها بنسخة أفضل، لكن صديقه المكلف بهذه المهمة قضى في قصف على دوما، فضاعت الصورة الوحيدة للوالد المتوفى. محمد لا يحب الحديث عن هذه الصورة لما تحمله من وجع. فيما بعد أصيبت إيمان برصاصة قناصة خلال محاولتها مع عائلتها الخروج من الغوطة وفقد كل أثر لها.

على الجبهات، لا يحبذ محمد صور المعارك، يتفرغ لالتقاط تفاصيل إنسانية أخرى. صورة لمقاتل في منطقة جوبر يمسك الكلاشينكوف بيمينه فيما يرتدي القناع الذي اشتهر عبر فيلم V for Vendetta. «هذا المقاتل أعرفه شخصياً، كنت أريد أن أقول إنه يشبه شباناً كثيرين حول العالم، يستمع إلى الموسيقا الغربية وسبق له أن

شاهد الفيلم، لكنه في الوقت ذاته مقاتل شرس». قضى هذا الشاب لاحقاً خلال اشتباكات مع قوات النظام السوري. يظهر مقاتلون آخرون في صور متفرقة، تارة يلعبون كرة القدم، وتارة يمارسون كرة السلة.

المصور الثلاثيني لا يفكر بمغادرة بلاده، «إن غادرت سيكون هدفي تلقي العلاج ومن ثم العودة، الناس هنا ليسوا موضوعاً للتصوير، بل هم أفراد عائلتي».

عين الدوشكا

(نشر في «يوميات مصورة في سوريا»)

الشهر الثاني من العام 2012، تحول حي «القصور» في مدينة حمص إلى ساحة للمعارك بين قوات النظام السوري ومقاتلي المعارضة. كان حمزة قبل هذا التاريخ أحد قادة المظاهرات السلمية في الحي، لكن كل شيء كان على وشك أن يتغير لابن التاسعة عشرة في ذلك الحين.

حمزة، كان قد نال الشهادة الثانوية في العام الفائت، إلا أن انخراطه في الثورة حال دون إكمال دراسته، ستقوده المعارك إلى حمل السلاح، المعارك التي دفعت أحد أصدقائه للرحيل عن حمص، مخلفاً وراءه كاميرا سيحملها الشاب اليافع إلى جانب بندقيته.

«لا أعتبر نفسي مصوراً محترفاً، أنا هاوٍ، الحدث الذي يحصل أمامي أصوره ولا ألاحق الحدث كي أصوره»، يقول حمزة شارحاً علاقته بالكاميرا. تعززت هوايته عبر صديق أكثر خبرة في عالم التصوير، تعلم منه بعضاً من الأساسيات واستهل مشواره في هذا الميدان، أولى صوره كانت لسلحفاة وسط الدمار خجلت من العدسة واختبأت في صدفتها.

بعد أسابيع قليلة، فرضت قوات النظام حصاراً على عدد من

الأحياء في مدينة حمص. «داخل الحصار أحياناً تحصل على فائض من الحرية». يستشهد الشاب الحمصي بصورة لحبل غسيل يتوسط شارعاً تعرض لدمار هائل، غياب الحياة عن الشارع وهجرة ساكنيه واستحالة مرور السيارات به، دفعت المقاتلين إلى وضع الحبل كيفما اتفق.

طال أمد الحصار، وطالت معه معاناة المحاصرين، أولى مراحل الحصار اقتصرت على انقطاع اللحوم والخضار، والثانية اعتمد فيها المحاصرون بشكل رئيسي على البرغل والرز بعد نفاد الطحين والمعلبات الغذائية، أما المرحلة الثالثة فكانت الأصعب بعد نفاد أية مواد غذائية أولية. يشرح حمزة جزءاً مما مرّوا به: «كانت هذه أصعب مرحلة، كنا نأكل أوراق الشجر والجراد أو نصيد العصافير.. لجأنا إلى الأعشاب والحشائش كذلك، وميّزنا بين الأنواع الصالحة للأكل وغير الصالحة عبر التجربة العملية، كما اعتمدنا على أوراق التين، كنا نسلقها، ثم نضيف إليها البهارات والزيت إن وجد».

التقط الشاب الحمصي معظم صوره خلال الحصار، والتقط معها تفاصيل قد لا يدرك كنهها إلا مَن خاض التجربة. خلال رحلة لجلب الطحين من حي الخالدية، أربعة شبّان يركضون بأقصى ما يستطيعون من سرعة في منطقة مكشوفة على رصاص القناصة، وهم يحملون على أكتافهم أكياساً من الطحين، رافقهم حمزة في رحلتهم وحمل معهم الطحين، عَبَرَ المنطقة الخطرة قبلهم وجهز عدسته وقبض بها على مشهد عبورهم. كانت الصورة أحياناً وسيلة لتحقيق مكاسب كذلك، خلال المرحلة الأشد من الحصار، صادف حمزة عدداً من المقاتلين جالسين على العشب يتناولون الإفطار، «مرَّ عليّ وقت طويل دون أن أحظى بشرب الشاي، التقاط صورة لهم كانت فرصة حتى أجلس معهم وأظفر بكأس من الشاي».

التحدي الدائم لحمزة هو التقاط صور من مناطق مواجهة لمتاريس قوات النظام ورصاص قناصته، في إحداها تمكن من التقاط صورة لبرج الغاردينيا، البرج ذاته الذي أطلق عليه مدنيو حمص لقب «برج الموت» لكثرة ما سقط من ضحايا نتيجة استهدافهم برصاص القناصة أو سلاح مضاد الطيران - دوشكا المتحصنين في البناء، يعلق حمزة: «هذه الصورة كانت بمثابة تحدٍّ بالنسبة لي، صديق لي التقط صورة لبرج الغاردينيا من أحد الأحياء الآمنة وغير المستهدفة وأرسلها لي، فالتقطت صورة للبرج من فتحة في جدار ناتجة عن طلقة دوشكا آتية من الغاردينيا».

الصور القريبة من مناطق الاشتباك هي الأقرب إلى قلبه، «الصور التي تحدّيت بها النظام والشبّيحة». لم تكن خطوط التماس مجرد دليل على خطر الحصار، كانت البيوت السليمة والأحياء التي تظهر خلف هذه الخطوط في مقابل الدمار الذي يظهر قبلها دليلاً على حجم الهوة التي تفصل بين عالمين رغم ضيق المسافة، «بعد ثلاثمئة متر هناك حياة طبيعية، بينما نحن في حصار غذائي وتحت قصف لا يتوقف».

أجلّ الصور مكانةً لدى حمزة هي لعائلته رغم أن أياً من أفرادها لا يظهر في الصورة، «المسافة بين المنطقة المحاصرة وحي الوعر لا تتجاوز الكيلومتر الواحد، منزل عائلتي في بناء سكني على يمين برج البريد مباشرة، صعدت إلى سطح مرتفع قليلاً محاولاً التقاط تغطية لهاتفي المحمول، كنت أكلم عائلتي من هنا وأنا عاجز عن رؤيتهم رغم أن المسافة هي بضعة مئات من الأمتار فقط».

لطالما أثر حمزة المقاتل على حمزة الفوتوغرافي، في معركة حصلت بحيّ «جبّ الجندلي» قبل أسابيع فقط من الانسحاب من حمص، نجح مقاتلو المعارضة في تسجيل تقدّم طفيف، وخرج منها

حمزة بصورة واحدة فقط لمجموعة من المقاتلين وقد بدا الفرح على وجوههم، بينما انهمك أحدهم في هدم الجدار لفتح كوة ستتحول إلى طريق بعيد عن خطوط الاشتباك، «بعد دقائق أصيب أحد أصدقائي أمام عيني، أبو النصر، ذو الثمانية عشر عاماً، فنسيت التصوير تماماً وانشغلنا بسحب الجريح».

قبيل مغادرة حمص، التقط حمزة بورتريهات الوداع. البورتريه الأول: مقاتل يمشي ضاحكاً في منطقة كانت تدعى سابقاً «شارع الموت»، آثر أن تكون الحقيبة التي سمح له بإخراجها من المدينة بحسب اتفاق الهدنة، قفصاً يضم طيراً رعاه منذ صغره، رافضاً أي مساومة للتخلي عنه، مثلما سبق أن رفض عروضاً عديدة لبيعه لشارين راغبين في التهامه خلال الحصار. البورتريه الثاني لمقاتل مبتسم ومتعب، «كان يكلّم زوجته وطفله وهو سعيد لأن لقاءهم اقترب، كانت هذه مناسبة جميلة أنه سيرى عائلته بعد فترة من الغياب، كانت فرحته عارمة، لا أعرف كيف كان شعوره تحديداً فأنا لم أتزوج بعد». البورتريه الأخير، كان لمسجد خالد بن الوليد، ذي الرمزية الكبيرة في صفوف المقاتلين، من داخل الحافلة المغادرة خارج المدينة.

يحظى حمزة حالياً باستراحة محارب في تركيا بينما يخطط للعودة إلى سوريا، «قد أعود إلى حلب أو إدلب، لا يهم المكان، المهم أن أكون داخل سوريا والكاميرا ستصاحبني لدى عودتي».

عندما قرّرت أن أصبح كردياً

(نشر في مجلة «صور»، آب 2014)

كان يوماً مشؤوماً، لم أجد وسيلةً للتضامن مع أهالي المدن والبلدات السورية الكردية الواقعة تحت نيران «داعش»، إلا بـ«ستاتوس فيسبوكي» سيقلب كل الموازين العسكرية والجيوسياسية والاقتصادية والإعلامية: «أنا كردي من حوران». ما هي إلا لحظات حتى قام الرسام الكلاسيكي والمعارض الحذق والسياسي الوطني والكاتب البارز كمال اللبواني بحذفي من قائمة أصدقائه الفيسبوكيين، لكن هذا الحادث الأخير الأليم، وعلى الرغم من إقراري ببالغ جسامته، لن يكون شيئاً بالقياس إلى ما تبعه.

فزوجتي كالت لي تهمة السعي إلى الانفصال عنها، وجنيفر أنيستون اعتبرتني المسؤول الأول عن انفصالها عن براد بيت، لكنها وللأمانة، لم تذكر اسمي فيما يخص ارتباط زوجها السابق بأنجلينا جولي. وليت الموضوع وقف عند حدود براد وجنيفر وأنجلينا وهذه الشلّة، فديمة الجندي حمّلتني مسؤولية انفصالها عن فراس دهني، وعمر البشير اتهمني في اتصال هاتفي بالضلوع في انفصال جنوب السودان عن شماله، وألمح إلى مسؤوليتي الأكيدة في أي انفصال محتمل لدارفور.

وكييف اعتبرتني مشاركاً في انفصال شبه جزيرة القرم، وصنعاء محرّضاً على انفصال جنوب اليمن، ونيودلهي داعماً للانفصاليين الكشميريين، وموسكو نصيراً للانفصاليين الشيشان، ومدريد مسانداً لانفصال الكتلان والباسكيين، ولندن منحازاً لانفصال الإسكتلنديين، وبكّين مؤيداً لانفصال التيبت، والرباط مناصراً لانفصال الصحراء الغربية.

لم يقف الأمر عند هذا الحد، فبعد ساعة ونصف على كتابة الستاتوس، أصيبت جارتنا الحامل بشهرها الثامن بانفصال المشيمة عن الرحم، وأشعرتني عائلتها بطريقة أو بأخرى بأن ثمّة مسؤولية تقع على عاتقي في هذه المصيبة. حاولت اللجوء لمشاهدة التلفاز على أمل الخروج من سلسلة اللعنات هذه، فكانت أول قناة تطلع على وجهي تعرض فيلم «انفصال نادر وسيمين» للمخرج الإيراني أصغر فرهادي. أغلقت التلفاز وأنا أرغي وأزبد، وعزمت مباشرة على مراجعة الطبيب النفسي عابد فهد، لعلّي أحصل على تفسير يشفي غليلي، فشخّص حالتي على أنها نوع من أنواع الانفصال.. عن الواقع، يشبه ذاك الذي يعيشه ساسة المعارضة السورية ورئيس النظام بشار الأسد.

حاولت الترويح عن نفسي بالخروج في رحلة إلى إحدى الغابات مع مجموعة من الأصدقاء، ولكن ما إن انقضت نصف ساعة على تجوالنا في الغابة حتى انفصلت عن باقي المجموعة وضللت طريقي. عدت إلى المنزل بعد جهد جهيد، وجلست في الركن الشمالي الشرقي من البيت، فاعتبرتني زوجتي ساعياً لإنشاء كياني الخاص بي في شقتنا المتواضعة، دون الأخذ بالاعتبار حاجاتها وخصوصياتها الاجتماعية والثقافية.

شتمت الساعة التي ارتأيت أن أتضامن فيها مع أحد، وقرّرت مقبلاً غير مدبر أن أحذف ذلك الستاتوس المشؤوم، مع إدراكي لكل التقهقر

العسكري والجيوسياسي والاقتصادي والإعلامي الذي سينتج عن ذلك، إلا أن خدمة الإنترنت كانت منفصلة، لعدم دفعي الفاتورة منذ ثلاثة أيام.

إلى المعارضين السوريين من أتباع المنهج البعثي المصابين بانفصال الشبكية، فيما خصّ الشأن الكردي: آزادي لعقولكم!

فريقي المونديالي المفضّل

مع كل مونديال، لا بدّ من أن تنهمر عليّ أسئلة يطرحها عشّاق المنتخبات المشاركة، رغبة في معرفة الفريق الذي أؤيده. وفي كل مرة لا يبدو الجواب الذي أقدّمه شافياً: «أنا مع الشعلة». إذ إن إشارات استفهام ترتسم على وجوه السائلين مبديةً رغبتها في مزيد من التوضيح، وعلى الرغم من أنني أقدّم هذا المزيد المرغوب: «الشعلة الدرعاوي». إلا أن جهلاً فاضحاً يبديه هؤلاء، لا بتاريخ كرة القدم في سوريا المعاصرة فحسب، وإنما بتاريخ كرة القدم منذ نشأتها على يد الصينيين قبل الميلاد، أو على الأقل منذ وصول كرة القدم إلى شكلها الحالي في بدايات القرن العشرين.

يتبدّى هذا الجهل أكثر ما يتبدّى في عدم معرفة الأسباب الموضوعية، قبل الذاتية، التي تدفع مشجّعي كرة القدم الأصيلة والحقيقية إلى تفضيل الشعلة على غيره من الأندية أو المنتخبات. هكذا، راجت في السنوات الأخيرة ظاهرة غير صحية بين المسحورين بالساحرة المستديرة، ألا وهي تشجيع منتخبات أوربية وأمريكية جنوبية مثل ألمانيا وإيطاليا والأرجنتين والبرازيل وغيرها، أو تشجيع أندية

أوربية كبرشلونة وريـال مدريد وبايرن ميونخ ويوفنتوس ومانشستر يونايتد.. وما إلى ذلك.

وللقضاء على هذا الجهل المتفشّي، أقدّم هنا سيرة موجزة لبعض الأحداث والشخصيات التي دفعت مارادونا أن يقول يوماً: «عندما حملت كأس العالم عام 1986 ترقرقت من عيني دمعة، ظنت الصحافة العالمية حينذاك أنها دمعة فرح، وحدها زوجتي كانت تعرف أنني أبكي لأنني كنت أتمنى أن أحمل الكأس مرتدياً قميصاً آخر.. قميص نادي الشعلة، قادني هذا الاكتئاب بعد سنوات إلى طريق المخدرات، ومن ثم إلى نهايتي كلاعب كرة قدم»[1].

– منذ تأسيسه، يقدم الشعلة أداءً ثابتاً، فهو إما يحتل المركز الأخير في الدرجة الأولى للدوري السوري، ومن ثم يهبط إلى الدرجة الثانية، أو يحتل المركز الأول في الدرجة الثالثة ويصعد إلى الدرجة الثانية[2]، متميزاً بذلك عن غيره من الفرق السورية والعربية والعالمية المشهورة بتذبذب مستواها، فلا يحرز كأس العالم في نسخة مثلاً، ثم يخرج من الدور الأول في النسخة التي تليها، كما تفعل منتخبات إسبانيا وإيطاليا وفرنسا، مسبّبة من الصدمات لمشجّعيها ما لا يمكن للشعلة أن يسبّبه لمشجّعيه.

– قدّم نادي الشعلة إلى كرة القدم العالمية كوكبة من أبرز المهارات التي حفرت اسمها في الذاكرة طويلاً. في مقدمة هؤلاء، الحارس العنكبوت: عبد الناصر شدّاد، أو «أبو فلحة»، كما أطلقت عليه صحيفة الغارديان، كان أبو فلحة العنصر الأساسي الذي قاد الشعلة للصعود إلى

1- صاغية، حازم، «أنا مارادونا من الأرجنتين»، 1999، دار الساقي، الطبعة الثانية.
2- تقرير المركز السوري للبحوث ودراسات السياسات: العمر الضائع، كرة القدم السورية من عام 1946 إلى 2011.

الدرجة الأولى، كما كان العنصر الأساسي الذي قاد الشعلة للهبوط إلى الدرجة الثانية، كما كان أحد أشهر عاملي الباطون في مدينة درعا وما حولها، وكان يشارك في المباريات مباشرة بعد انتهائه من صبّة في إحدى البنايات، وفي حال لم يفرغ من الصبّة كان يضطرّ للتغيّب عن المباريات. من النجوم العالقين في الذاكرة أيضاً: صخرة الدفاع.. وائل زيدية، لم يكن الأخير مشهوراً فقط بالرفسة الأسطورية لزميله الحارس أبو فلحة خلال مباراة ودّية، أو للرقابة اللصيقة التي كان يفرضها على مهاجمي الفرق الأخرى، وغالباً ما تنتهي بتلقّيه بطاقة حمراء، وإنما لتسبّبه باعتزال عدد من مهاجمي الفرق المنافسة بعد تدخّلات عنيفة من قبله أدّت إلى إصابتهم بكسور مزدوجة أو عاهات دائمة. تطول قائمة نجوم الشعلة البارزين لتشمل المهاجم القناص أشرف مسالمة، الذي نجح في إحدى المباريات الودّية من تسجيل هدفين في مباراة واحدة، في ظاهرة قلّما تحدث في ملاعب كرة القدم. وجرى احتساب الهدفين في الذاكرة، رغم أن الحكَم ألغى أحدهما لأنه جاء من تسلّل واضح.

– يعدّ جمهور نادي الشعلة وعنفوانه المبرر أو غير المبرر أحد أبرز الأسباب التي قد تدفع المتابع الحصيف إلى تفضيل النادي الدرعاوي على أيّ نادٍ أو منتخب، حتى لو كان منتخب بلاده. كان هذا الجمهور هو الشرارة الأولى لانتفاضة درعا في 18 آذار من عام 1994، بعيد مباراة شهيرة استضاف فيها الشعلة فريق جبلة، وحابى فيها الحكَم الفريق الضيف لأسباب جغرافية بحتة تتعلق بالقرب والبعد من الساحل السوري[3]، اندلعت انتفاضة واسعة، شارك فيها مشجّعو الشعلة من كل الأعمار، واقتحموا منزل قائد الشرطة في المحافظة «أبو وضاح» قبل

3- بشارة، عزمي، درعا: درب الآلام نحو الحرية، المركز العربي للأبحاث ودراسات السياسات، 2014، الطبعة السادسة.

أن يجري قمعها بقسوة مفرطة من قبل قوات الأمن، وكان غياب وسائل الإعلام حينذاك حائلاً دون تطورها إلى ثورة شاملة. لا بدّ من الإشارة إلى أن عنفوان مشجعي الشعلة كثيراً ما كان يؤدي إلى أن يستهلّ الفريق مشاركته في الدوري وقد حُذفت نقاط من رصيده، حتى إنه في أحد المواسم بدأ الدوري برصيد (- 12).

- لا يشعر مشجّع نادي الشعلة بأيّ عقدة نقص كالتي يشعر بها مشجّعو الفرق الأخرى التي تدفعهم إلى تشبيه فرقهم المفضلة بفرق أخرى: كأنْ يطلق مشجّعو البرتغال على فريقهم لقب «برازيل أوروبا»، أو مشجعو فريق الفتوة على ناديهم لقب «إيطاليا الفرات»، أو أنصار نادي الوحدة الذين يشبّهون فريقهم بهولندا للتشابه في الزي. في درعا: الشعلة هو الشعلة، الشعلة حاف، لا هو أرجنتين حوران ولا ألمانيا سوريا، بل إن أحفاد سوريّين هاجروا من القلمون إلى الأمريكيتين في مطلع القرن العشرين كشفوا في زيارة للبلد الأب أن الحساسية العالية بين مشجعي الأرجنتين والبرازيل تعود إلى التنافس المحموم على لقب «شعلة أمريكا الجنوبية»[4].

4- صحيفة البعث: العدد 13258، 2011/3/18: زاروا قبر القائد الخالد واطلعوا على منجزات مسيرة التطوير والتحديث: مهاجرون سوريون في رحاب قلب العروبة النابض.

الطريق إلى السويد:
مغامرات سوريين قد تنتهي بالموت

(نشر في موقع «الجمهورية»)

«كانت مجموعتنا تتكون من ستة أشخاص، ووصلنا أنا واثنان آخران، فيما توفّي ثلاثة على الطريق»، هكذا بدأ علاء (27 عاماً) سرد قصة عبوره الحدود التركية اليونانية بطريقة غير شرعية، أملاً بالوصول إلى السويد والحصول على حق اللجوء فيها.

علاء، الحاصل على شهادة جامعية في هندسة نظم الحاسوب، هو واحد من آلاف السوريين الذين خاضوا ويخوضون مسارات مليئة بالمغامرات والمخاطر، في سبيل الوصول إلى الدولة الإسكندنافية، التي أضحت كعبة السوريين الراغبين في اللجوء إلى أوروبا، منذ اندلاع الثورة السورية قبل أكثر من ثلاث سنوات، ولا تتوفر أرقام دقيقة عن مجموع هؤلاء، خاصة أن نسبة منهم يلقَون حتفهم قبل أن يبلغوا غايتهم.

اضطر الشاب المنحدر من مدينة درعا إلى مغادرة بلاده، هرباً من ملاحقة الأفرع الأمنية، لانخراطه في الاحتجاجات ضد نظام الرئيس بشار الأسد، ثم اضطر لاحقاً لمغادرة الأردن، بلد لجوئه الأول، بعد

إشكاليات تعرّض لها مع الأمن الأردني، وخوفاً من تهديدات وصلته من «جبهة النصرة»، وهي إحدى القوى التي تقاتل في سوريا.

غادر علاء باتجاه مدينة إسطنبول التركية، ومنها إلى أزمير، حيث فشلت أولى تجارب عبوره الحدود مع اليونان، إذ اكتشف خفر السواحل اليوناني القارب الذي كان يُقلّهم قبل مئات الأمتار فقط من الوصول إلى جزيرة يونانية. في المحاولة مع مهرّب من مدينة حلب السورية، قضى علاء ومجموعته، التي تضم شابّاً آخر وعائلة من اللاذقية مكوّنة من زوجين وطفليهما، أكثر من ساعتين لاجتياز بضعة كيلومترات في مياه بحر إيجه، بسبب عطل أصاب قاربهم بُعيد الانطلاق ورفْض قائده العودة.

يقول علاء في حديث لـ «الجمهورية»، إن العطل الذي أصاب القارب لم يكن المفاجأة غير السعيدة الوحيدة، فبدلاً من إيصالهم إلى نقطة قرب أحد الموانئ، بحسب اتفاق مسبق مع المهرّب، وضع قبطان الرحلة اللاجئين الستة في منطقة تبعد عدة كيلومترات عن أقرب شارع، وأضاف علاء أن «الكيلومترات كانت عبارة عن جرود صخرية مرتفعة وقاسية فيها دربٌ ضيّق لا يتجاوز عرضه نصف متر».

بلا دليل يقودهم، تاهت المجموعة في الجرود الصخرية، ولم يُجدِها الاتصال بالنجدة اليونانية طلباً للمساعدة. بعد يوم كامل بلا مياه أو طعام، استأنفوا مسيرهم إثر ليلة بلا نوم بسبب البرد الشديد في العراء. ربّ الأسرة انفصل عن المجموعة بهدف رغبته سلوك الطريق البحري سباحة والعودة بالنجدة، وهو ما يعني السباحة لعدة كيلومترات. يوضّح علاء أن الزوجة والطفلين لم يعودوا قادرين على إكمال مسيرتهم نتيجة الإجهاد والعطش الشديد، فطلبت الأم أن ينتظروا في مكانهم وكان آخر ما قالته: «جيبولنا ميّ منشان ما نموت».

واصل الشابان رحلتهما على أمل العودة بمياه شرب للأم والطفلين، وفيما احتفظ علاء ببعض من قوته، بدأ الشاب الآخر يفقد توازنه، وهو أساساً يعاني من آلام في الظهر ومشاكل ضغط، فطلب من علاء في حال غطّ في النوم ألا يوقظه «كي يموت وهو مرتاح». يواصل الشاب قصّ ما جرى معه: «بعد ساعتين من المشي دخلنا إلى منطقة أحراش ووجدنا بناء قديماً لكنيسة صغيرة وفارغة، عثرنا داخلها على وعاء به مياه قديمة مخضرّة، فككت رباطاً طبياً كنت أضعه على ركبتي واستخدمناه لتصفية المياه قدر الإمكان والشرب.. بعد أن شربنا، عجزنا عن التحرك وغطَطنا بالنوم، واستيقظنا على صوت الشرطة والإطفاء بعد سبع ساعات تقريباً، لنكتشف أن الأحراش تحترق والنار لا تبعد عنا سوى بضع عشرات من الأمتار. اعتقلتنا الشرطة، ولم يصدّقوا أننا خلّفنا وراءنا عائلة وأطفالاً، ولم يبذلوا جهداً لإنقاذهم، بل اقتادونا إلى مركز الشرطة ووجّهوا لنا اتهامات بإشعال النار عمداً».

بعد يوم واحد فقط في مركز الشرطة الحدودي، وصل رب الأسرة وبدأ يتحدث عن عائلته المفقودة، إلا أن الشرطة اليونانية لم تسمح لعلاء بالمساعدة في تحديد مكان العائلة إلا بعد أسبوع كامل على افتراقه عنهم، دون السماح له بالوصول إلى النقطة التي افترقوا فيها، بحجّة أنها منطقة محظورة، فيما واصل رب الأسرة البحث عن عائلته وحده، وعثر بعد أسبوع على الجثث.

واجه علاء مجموعة من الاتهامات، تبدأ بالتجسس لمصلحة تركيا ولا تنتهي عند الإرهاب، مروراً بحرق الأحراش عمداً، قضى ابن السابعة والعشرين ثلاثة أسابيع في السجن دون السماح له بإجراء أي اتصال، وفي أول أيام العيد سمحوا له بإجراء مكالمة لمدة دقيقتين مع والدته في سوريا، وبمجرد أن سمعت الأخيرة صوته همست

في السمّاعة: «إنت عايش!» وانخرطت في البكاء. نقلت السلطات اليونانية المهندس الشاب إلى سجن مركزي في أثينا حيث قضى أسوأ أيام حياته، وفق تعبيره، قبل أن يجري الإفراج عنه لاحقاً.

أربعة جوازات وعدسات زرقاء

الطريق ذاتها سلكها وسيم (29 عاماً)، الحاصل على بكالوريوس في إدارة الأعمال ودبلوم في العلوم المصرفية، لكن برفقة زوجته ومجموعة مؤلفة من 12 لاجئاً، بينهم ثلاث نساء، وثلاث أطفال دون السادسة، وشابّ يعاني من الربو.

كان الموت هاجساً لدى وسيم قبل الشروع في رحلته، وما تناهى إلى سمعه من أنباء عن مصير بعض العابرين عزّز هذا الهاجس. «طبعاً كنت أخشى الموت، سبق أن علمت أن مجموعة من المهاجرين قضت على الطريق نفسه برصاص مهرّبين خشوا أن تكتشف السلطات طريق التهريب، بعد أن قرّر هؤلاء المهاجرون عدم المضيّ في الرحلة والعودة»، هكذا يوضح الشاب لـ«الجمهورية» الأسباب التي كانت تدفعه للقلق، ويضيف أن «إحدى المجموعات تاهت في الغابات التركية لـ16 ساعة، قبل أن يجري إلقاء القبض عليهم من قبل السلطات».

ما تعرّض له علاء من خداع في مسار الرحلة ومدّتها المفترضة، واجه وسيم ما يشبهه أيضاً على الرغم من أن المجموعة التي كان يرافقها تضمّ ابنة عمّ المهرّب وأطفالها الثلاثة. بدأت الرحلة من «غازي عنتاب» إلى إسطنبول فإزمير، ثم رحلة في السيارة لنحو خمس ساعات، تلاها مسير ليليّ قرابة ساعة في إحدى الغابات لبلوغ البحر، ومن ثم الخوض في البحر مشياً للوصول إلى القارب. كان خط الرحلة يقتضي بحسب المهرّب قضاء نصف ساعة بالقارب، للانتقال من تركيا

إلى نقطة داخل الحدود اليونانية، على أن يليها مشي لنحو تسعين دقيقة تتضمّن تجاوز تلّة لا يزيد ارتفاعها عن خمسين متراً، للوصول إلى أقرب مركز شرطة.

ما كان يفترض أن يكون ساعة إلى ساعة ونصف من تجاوز تلة لا تزيد عن 50 متراً، اتضح أنه ثماني ساعات من تسلّق ثلاثة جرود صخرية من الصوان ارتفاعها أكثر بنحو أربعة أضعاف. لم يكن أحد في المجموعة قد أخذ هذا في الحسبان، لم يحمل أحد منهم المياه، وكان عليهم تسلّق الجرود لتجنّب خطر الانكشاف من خفر السواحل اليونانية، وكل هذا تحت أمطار لم تتوقف ووسط ظلام دامس، إذ لا يمكن استخدام أي نوع من أنواع الإضاءة لأنها تلفت نظر خفر السواحل.

بغياب أي دليل يعرف الطريق، عمدت المجموعة إلى الاتصال بالمهرّب للاستفهام منه عن الطريق، اتصالات كانت تذهب سدى في كثير من الأحيان، لانتفاء القدرة على وصف موقع المجموعة نتيجة الظلام المطبق. يشير وسيم إلى أن المجموعة كانت محظوظة لأن أحد أعضائها درس دربها المفترض عن طريق خرائط غوغل.

المشي على الصخور وتسلّقها أدّى إلى تمزّق أحذية العابرين وأجزاء من ملابسهم. يقول وسيم: «كنّا أحياناً نرى مِزَقاً لثياب آخرين مرّوا من الطريق نفسه، ولا نعرف هل بلغوا مرادهم أم لا». نتيجة الإجهاد أخذت زوجته تبكي، ثم بدأت تهلوس مع إنهاكها وتقيأت ثلاث مرات، فيما اضطرت المجموعة للتوقف مرتين وأخذ استراحة إجبارية، مرة لأن أحد أفرادها عانى من نوبة ربو، ومرة لأن آخرَ أُصيب بعارض صحّي مفاجئ في القلب.

بعيد الوصول، أمضى وسيم يومين في مركز شرطة باليونان، ثم أُطلِق سراحه فقضى 45 يوماً في أثينا، وبدأت محاولاته لمواصلة

الطريق إلى السويد عبر دولة ثالثة. محاولته الأولى كانت باستخدام جواز سفر أمريكي له وكرواتي لزوجته والاتجاه إلى برشلونة، فعبرت الزوجة واكتُشف الزوج دون أن يُعتقَل، بل مجرد مصادرة أوراقه المزورة. المحاولة الثانية كانت باتجاه سويسرا بأوراق إقامة سويدية، وباءت هذه المحاولة بالفشل أيضاً. وفي المرة الثالثة تكلّلت المحاولة بالنجاح، باستخدام جواز سفر فرنسي يتشابه صاحبه في الملامح مع وسيم باستثناء اختلاف لون العيون، اختلاف تلافاه وسيم عبر وضع عدسات ملونة ليسافر إلى أمستردام ومنها إلى ستوكهولم.

في مقر إقامة مخصّص للاجئين سوريين في السويد، سمع وسيم قصصاً أخرى لمواطنين سوريين خاضوا تجارب متنوعة في قسوتها ومدى غرابتها. أحد اللاجئين الذين سلكوا الدرب الصخري في اليونان وصل إلى مركز الشرطة وهو يحمل حقيبة حاسوبه المحمول ويرتدي لباساً داخلياً فقط، بعد تمزّق ملابسه بسبب الصخور. لاجئ آخر جرى إخفاؤه في صهريج لنقل الوقود، انتقل به من تركيا إلى إيطاليا، ماراً ببلغاريا وصربيا وكرواتيا وسلوفينيا، ومن ثم أكمل طريقه من إيطاليا بالقطار.

قوارب المخلّل

هدى (21 عاماً) كان عليها أن تعبر البحر لا الجبال كي تصل إلى أوروبا. هدى.. الفلسطينية السورية خاضت البحر المتوسط من الإسكندرية إلى إيطاليا برفقة رضيعتها ابنة التسعة أشهر وزوجها وحماتها، الذين فضّلوا أن يغادروا مصر. «لأننا لم نملك خياراً آخر، فلا نستطيع العودة إلى بلدنا بينما الحياة في مصر أصبحت كالجحيم للسوريين في بعض المناطق»، وفق ما تقول هدى.

وفيما يبدو أنه قاسم مشترك بين جميع اللاجئين، كان ثمة اعتقاد خاطئ بسهولة ما هم مُقْبلون عليه. توضّح هدى، التي غادرت سوريا قبل عامين، فأقاربها الذين سبقوها إلى السويد أخبروها أن الرحلة سهلة ومضمونة ضمن قارب واسع ومريح، لكن الواقع كان أكثر هولاً: «انصدمنا أن القارب صغير ومخصّص للصيد، وكان عدد المهاجرين حوالي 170 شخصاً بدلاً من 60 حسب ما أخبرونا سابقاً»، وتضيف الطالبة السابقة في كلية علم الاجتماع بجامعة دمشق أن المهاجرين كانوا «محشورين كالمخلّل» في القارب.

حمل أفراد العائلة حقيبة ظهر واحدة لكل فرد فيهم، احتوت قليلاً من الطعام والمياه والثياب وستَر نجاة كانوا يعلمون ضمناً أنها قد لا تفيد فيما لو اضطروا لاستخدامها في عرض البحر، وبعد خمسة أيام في مياه المتوسط، انتقل المهاجرون من قاربهم الضيق أصلاً إلى قارب أصغر بهدف التخفّي عن خفر السواحل الإيطالي. كان مقرّراً أن تكون رحلة القارب الصغير للوصول إلى شواطئ إيطاليا أربع ساعات، لكن القارب تاه في المياه ليومين كاملين، بدأ خلالها مخزون المياه والطعام ينفد. من حسن الحظ أن القبطان اقتنى هاتف ثريّا للطوارئ، فاتصل بالنجدة الإيطالية التي حدّدت موقع القارب ونقلوا راكبيه في قوارب مطاطية إلى الشاطئ، الذي كان يبعد أكثر من ساعتين.

من إيطاليا بدأت العائلة رحلة بالحافلات مع مهرّب آخر، مرّوا خلالها بفرنسا ومن ثَمّ ألمانيا، حيث ألقت السلطات القبض عليهم لأن سائق الحافلة كان مخموراً، ونقلتهم إلى مخيم للاجئين، لكن العائلة فرّت من المخيم وتابعت طريقها إلى الدنمارك ومنها إلى مدينة مالمو في السويد.

سبعة أيام في البحر

خاض عثمان رحلة مشابهة بعض الشيء لرحلة هدى وعائلتها، انطلاقاً من الإسكندرية باتجاه إيطاليا. ابن مدينة جسر الشغور كان يعمل بالتجارة ويملك محلّ ألبسة، قبل أن يقرّر مغادرة بلاده لاستحالة مواصلة المعيشة فيها، بسبب جمود الوضع الاقتصادي وفراغها من سكانها، عدا تسلط الضباط والجنود من جيش النظام السوري على محلّه، وأَخْذِهم ملابس منه بالمجّان متى شاؤوا.

انتقل عثمان إلى تركيا ومنها مباشرة إلى مصر، حيث قضى تسعة أشهر. يشير إلى أنه لم يكن يفكر أبداً بالهجرة غير الشرعية، لأنه يخشى عواقبها وما قد يمرّ به خلالها، لكنه عندما رأى مُسنّين ومسنّات وأطفالاً من السوريين يُقدِمون عليها في الإسكندرية، عَدَلَ عن رأيه وقرّر الهجرة مع المهاجرين. انحشر في قارب مزدحم ضمّ أكثر من مئة آخرين، معظمهم من السوريين والفلسطينيين السوريين، إضافة إلى قلّة من المصريين.

يوضح ابن جسر الشغور أن الأيام الأربعة الأولى خلال الرحلة مرّت بهدوء بشكل عام، عكّره أحياناً دوار البحر وحالات الإقياء المتكرر، وأضاف: «تغيّر كل شيء في اليوم الرابع، بعد أن تعطّل محرك القارب، بالتزامن مع ارتفاع مفاجئ للأمواج وتغيّر في الطقس، كانت الأمواج عالية جداً، والقارب يكاد لا يتقدم».

«مرت بعد ذلك ثلاثة أيام نفدت خلالها مخزونات الطعام والمياه في القارب، وكانت البواخر تمرّ بالقرب منا لكنها لا تقترب كثيراً خشية انقلاب القارب بسبب ارتفاع الموج، اتصلنا بالنجدة الإيطالية، ولم تستطع قوارب النجدة نقلنا من داخله أيضاً بسبب الموج المرتفع، فيما

قامت مروحيات بإلقاء سُتَر نجاة وسِلل غذائية لكنها سقطت في البحر، فاضطررت للسباحة من أجل إحضارها وخاصة أن الأطفال لم يتذوقوا شيئاً من أيام».

بعد هدوء الموج نقلت السلطات الإيطالية المهاجرين إلى صقلية، ومنها انتقل عثمان إلى ميلانو فباريس، فبلجيكا، فهولندا، ثم ألمانيا، والدنمارك، وصولاً إلى السويد.

عثمان دفع 3200 دولاراً للمهرّب، ومع ذلك فهو يؤكد أنه سيعود إلى بلده إذا استقرّت الأمور، شارحاً الأسباب التي تدفعه للعودة: «هناك لدي محل وبيت ومستقبل، هناك سأتزوج وأنجب، هنا تقتصر حياتي على الأكل والشرب».

أما علاء فأنفق لغاية اللحظة نحو 10 آلاف يورو، منها 2200 يورو للمهرّب، وما تبقّى أتعاب للمحامين ومصروف شخصي، وهو ما زال في اليونان حيث يقضي أيامه مُفلساً، محاولاً إيجاد وسيلة لمواصلة الطريق إلى السويد.

وسيم أيضاً لا يفكر بالعودة إلى سوريا حتى لو تحسّن الوضع الأمني في البلاد. فالمجيء إلى السويد كان بالنسبة له أشبه باستثمار، كلّفه وزوجته نحو 24 ألف يورو، منها 13 ألف يورو دفعها للمهرّبين ومصاريف سفر وإقامة في تركيا واليونان.

تتعلم هدى حالياً اللغة السويدية، تأمل بالعودة إلى سوريا في حال تغيّر النظام «رغم أن شروط الحياة هنا أفضل لنا كعائلة، لكن سوريا تبقى بلدنا التي نشتاق لها»، على الرغم من أنها دفعت وأفراد عائلتها نحو 9 آلاف دولار لبلوغ الجنّة السويدية.

قدرات استثنائية

على مدى عامين، أصبح المواطن السوري:
الأمّي
البسيط
الجاهل
المسحوق
المقهور
الفقير
المعدَم
الجائع
الغلبان
المقموع
الحافي
العاري
الهارب
المعذَّب
المكسور

اللاجئ
النازح
المهجّر
المشرّد
له الأسماء الثكلى، سبحان نظامه في ما يصفون
قادراً على التمييز بين صوت مضاد الدروع، وصوت قذائف الدبابات
بين الهاون 60 مم، والهاون 120 مم
بين صواريخ سكود، وصواريخ غراد
بين انفجار سيارة مفخّخة، وقصف الطيران
وبين قصف الطيران، وقصف الرعد
وبين قصف الرعد، وقصف الأسد
بين استهداف مخبز، وانشقاق فاروق الشرع
بين نظرية داروين، ونظرية المؤامرة
بين مواقف دول البريكس، وتصريحات فرانسوا هولاند
بين صقور إدارة بوش، وحمائم إدارة أوباما
بين معارضة الداخل، ومعارضة الخارج
بين العصابات المسلحة، والجيش الحر
وبين الجيش الحر، والعصابات المسلحة
بين أبي قتادة، وأبي عبدو الفوّال
بين الجزيرة، والأسوشيتد برس
وبين طاولة الحوار، وطاولة الطعام
وبين كارل ماركس، وقدري جميل
وبين أدونيس، ورامبو

بين انهيار الليرة، والقوة الشرائية
وبين الاحتياطي النقدي، وسلّة العملات
وبين الحابل والنابل
ورغم تفوقه الواضح هذا في العلوم العسكرية والسياسية والاقتصادية
إلا أنه ما يزال
أمّياً
بسيطاً
جاهلاً
مسحوقاً
مقهوراً
فقيراً
معدَماً
جائعاً
غلباناً
مقموعاً
حافياً
عارياً
هارباً
معذَّباً
مكسوراً
لاجئاً
نازحاً
مهجّراً
مشرّداً!

الممحاة

يتوقف الأستاذ عن الكتابة على السبورة، يطلب من الطلاب التوقف عن الحركة ويصغي بسمعه، أزيز طائرة تقترب، سرعان ما تحوّل إلى هدير، أفرغت الطائرة برميلاً على القرية كما تفرغ حمامة جوفها على عابر سيّئ الحظ، ما هي إلا لحظات حتى دوى صوت انفجار ضخم ترافق مع اهتزاز أصاب غرفة الصف بكل محتوياتها، لم يكن الانفجار بعيداً جدّاً، أمر الأستاذ أطفاله الالتزام بمقاعدهم وطفق يركض إلى الخارج.

عاد الأستاذ مسرعاً، طلب من الطلاب العودة إلى منازلهم، وضع أحمد أغراضه كيفما اتفق في حقيبته، خطف بصره على صورة سوبرمان المرسومة على الحقيبة وقد بدأت تفقد ملامحها، ثم ركض مع الراكضين، خطوات قليلة فصلته عن السور، توقف في مكانه، تذكر ممحاته الراكنة في درج مقعده وشرع يهرول عائداً.

قبيل وصوله إلى غرفة الصف، اصطدم أحمد بأستاذه، صرخ به:

– شو رجّعك؟

– نسيت محّايتي.. أستاذ!

– وقت محّايتك يا حمار! بسرعة على بيتك.

شرع أحمد يركض بالاتجاه المعاكس، خرج من المدرسة مجدداً، الشمس الناعسة تدثّرت بحجاب دخاني أسود اللون، لم يبالِ كثيراً بالمشهد، البال كان مشغولاً بتأنيب والدته المتوقّع، يطرق صوتها في رأسه كطبل أجوف:

– أبوك بيشتريلك غراض المدرسة، وأنت بتضيّعهم يا حمار!

يواصل أحمد جريه باتجاه البيت، فيما تنساب دموع الخوف من العقاب المنزلي وتتطاير باتجاه معاكس، يدوّي انفجار آخر، يواصل أحمد جريه، دموعه أكثر غزارة، يفكر في قرارة نفسه: عندما أكبر سأتعلّم قيادة الطائرة، ومن ينعتني بالحمار، سأفجّره ببرميل.

معضّمية

تطبع سناء قبلةً حارة على جبين صغيرها أحمد، وتطلب منه بإلحاح أن يعتني بنفسه جيداً، تتابع مشية طفلها المتهادية في طريقه إلى مدرسته التي لا تبعد أكثر من شارعين، ترتسم ابتسامة شفيفة على ثغرها، وهي تتابع تأرجح الحقيبة المدرسية الضخمة على ظهره، وقد بدت أشبه بهودج.

تنكفئ الأم الثلاثينية إلى داخل المنزل وتنشغل في مهامها المنزلية الاعتيادية، تصل إلى مسامعها أصوات القصف والاشتباكات الدائرة في داريا وعرطوز المجاورتين، تفكر بفخر، لا يخلو من قلق، بزوجها، ربّان الطائرة العسكرية الذي ندرت ساعات وجوده في المنزل خلال الشهور الأخيرة.

ينطلق أحمد راكضاً بمجرد انتهاء دوامه المدرسي، أمتار قليلة عن بوابة ابتدائية «المعضمية الأولى»، يتوقف، يرى صديقه علاء للمرة الأولى منذ أشهر، المرة الأخيرة التي اجتمع فيها الصديقان كانت خلال الامتحانات النهائية للصف الثالث، في الصيف الماضي، مقاعد الدراسة في الصف الرابع لم تجمع أحمد وعلاء مجدداً كما جمعتهما

في سني دراستهما الثلاث الأولى، والد علاء كان قد استشهد في اقتحام عسكري للمعضمية خلال الصيف، أصبح التعليم بالنسبة للطفل ذي السنوات العشر ترفاً لا تقدر الأسرة أن تتحمله، البقاء على قيد الحياة هو المبتغى والغاية الآن.

تصافحا بارتباك، استفسر أحمد من علاء عن سبب تغيّبه هذا العام، كان يعتقد أنه انتقل إلى مدرسة أخرى، وجد علاء في السؤال مخرجاً من حرجه لم يرد في ذهنه، أكد لصديقه أنه انتقل وأسرته إلى مدينة مجاورة، لم يخطر على بال أحمد أن يستفسر من صديقه عن سبب وجوده هنا، اتفقا بسرعة على الذهاب إلى البستان الذي اعتادا قضاء الساعات الطوال فيه دون كلل.

لم تكن إلا دقائق حتى امتدت الاشتباكات من داريا إلى المعضمية، في محاولة من الثوار لتخفيف الضغط عن داريا المحاصرة لأيام عدة، استعان الجيش بقواه الجوية القادرة على خلق الفارق، لم يفهم أحمد الحالم بأن يصبح طياراً ارتعاشات علاء لدى رؤيته الوحش المعدني المحلّق فوقهما، كان والد أحمد يحوم بطائرته العمودية فوق المنطقة، لم يفكر كثيراً قبل أن يطلق صواريخه على أهدافها.

احتاج حسم الجيش للمعركة إلى ساعة واحدة فقط، كان علاء وأحمد ينامان بعمق، فيما كانت سناء تقف على باب المنزل تنتظر قلقة عودة صغيرها من المدرسة.

شهيد

الساعة الثانية بعد الظهر، يستيقظ علاء من بطالته السرمدية، ينتقل بين السرير والمغسلة متثاقلاً في رحلة حلزونية.. يدكّ رجليه في بنطال الجينز الذي قارب على الاهتراء، يضع القدمين في حذائه الرياضي وينزل إلى الشارع..

الساعة الثانية بعد الظهر، والدة علاء الأرملة تطبخ لوحيدها أكلة «المَحاشي» التي يعشق، تراقب القِدر المليء بسائل البندورة المقشرة ذات اللون الأحمر القاني، تمسك الملعقة وتتذوق، تضع رشّة ملح وما يكاد لا يُرى من الفلفل، ثم تواصل انهماكها في جلي الأغراض المستخدمة سابقاً، وتتابع بين فينة وأخرى منجزها من الكوسا والباذنجان المحشوّ بالرزّ كما يتأمل تشكيلي لوحته المشارفة على الانتهاء.

يصل علاء إلى مدخل البناء، لا يلحظ دكان الحي المغلق ولا غياب شياطين الحارة الصغار الذين اعتادوا ملء أي فراغ بحيوية لا تنضب، يواصل مشيته المتمهّلة، فيدلف إلى شارع رئيسي، يراقب منذهلاً المحلات المغلقة في وضح النهار، الفكرة السخيفة حول نهاية العالم تراوده للحظة، ما سبق أن قرأه في كتب الخيال العلمي، حول وباء يغزو

المدينة وينجو منه قلّة، يمرّ في باله كخاطرة ليست أقل سخفاً.. علاء الذي كان نائماً بعمق يحلم بوظيفة وفتاة رآها في محل للآيس كريم هنا في هذا الشارع بالذات قبل يومين، يجهل وجود حظر للتجوال أعلنته السلطات بمكبّرات الصوت منذ الصباح، فالمدينة خرجت عن بكرة أبيها مساء أمس في تظاهرات حاشدة تطالب بكل ما سُلب منها لعقود. من بعيد يلوح حاجز أمنيّ.

عبر مكبّر الصوت يأتي الأمر واضحاً صادحاً طالباً من علاء التوقف، يتجاهل الأخير النداء ويواصل مشيته المتهادية مستهزئاً بالأوامر. لم يطُل الأمر كثيراً، يأتي الأمر حازماً من الضابط رئيس الدورية المشرفة على الحاجز للعسكري المتحفّز بإطلاق النار، ثوانٍ معدودة وتنطلق رصاصة كالسهم تخطئ القلب فلا تقتله، يزحف المصاب باحثاً عن ملجأ غير موجود. ثوانٍ أخرى وتنطلق رصاصة ثانية لتصيب الجبين بإحكام فيخرّ علاء صريعاً.

في هذه الأثناء تشعر الأم بغياب مدلّلها خلال فترة انشغالها بالمطبخ، تبحث عنه في أرجاء المنزل بلا جدوى، تضع على نفسها ثوبها البني وتنزل مسرعةً خلف ابنها، فيما تتسارع نبضات قلبها، ترى أملها بالدنيا وقد استسلم جثة هامدة غارقاً بدماء تغسل الأسفلت بهدوء، تقترب منه، تحتضنه وتبكيه بصوت مختنق، يدنو منها رئيس الدورية ويخبرها بضمير مرتاح: «لم يستجب لأوامرنا بالتوقف»، تجيبه: «إنّه أصمّ.. يا ابن القحبة!».

من الميريديان إلى مهجع الموت

(نشر في موقع «داماسكوس بيرو»، 2013/4/5)

لطالما شعرت بفضول استثنائي لرؤية ما يحصل في أقبية فروع الأمن السورية، الروايات التي قرأتها عن تجارب معتقلين سابقين قبل انطلاق الثورة عام 2011، والقصص التي سمعتها من أصدقاء وأقارب خاضوا التجربة بعد آذار من العام نفسه، ضاعفت من رغبتي بالاطلاع بشكل مباشر على وضع لا يمكن وصفه إلا بأنه عارٌ على البشرية.

لم أكن أعلم أن مصادفة بحتة ستقودني لخوض تجربة الاعتقال لمدة يوم واحد فقط لا غير، تجربة قد لا تتاح كثيراً لصحافي لو تمنّاها، ولا يمكن لمن لم يجرّبها بنفسه أن يعرف تفاصيلها ما لم يعرف أنفه الروائح الكريهة، أو لم يرَ بأم عينه كيف يتكدّس عشرات من المعتقلين في مساحة لا تتّسع لربع الموجودين.

تبدأ المصادفة بشكّ أحد عناصر حواجز الأمن في دمشق بشخصيتي، كوني ابن إحدى المدن الثائرة، يقوده شكّه إلى استدعاء دورية من الفرع، تقودني الدورية إلى مبنى الفرع، ويقود المحققَ مقطعٌ تافه منسيّ في جوّالي لطفل يشتم بشار الأسد، إلى التحقيق معي بشكل

أكبر، ثم ينتهي التحقيق بنقلي إلى مهاجع المعتقلين في قبو مخصص لهم، لا بد من الإشارة إلى أن ثمن اكتشاف المقطع في جوالي كان أربع صفعات وثلاث لكمات تسبّبت إحداها في انتفاخ عيني لأصبح أشبه بشخصية كارتونية.

في صالة التحقيق الواسعة، وقبيل الوصول إلى المهاجع، وقفت منتظراً دوري في التحقيق وعيناي معصوبتان، تناهت إلى سمعي الأصوات الصادرة عن غرف التعذيب، لم تكن أصوات ألمٍ بشريّ، بدت أشبه بزئير وحوش تخرج منها أرواحها.

بمجرد الاقتراب من الباب العلوي، الذي تنتهي أدراجه إلى مهاجع الاعتقال، زكمت أنفي رائحة عفن، عرفتها فوراً، هي رائحة الاعتقال، سبق أن خبرتها إثر معانقتي لصديق قضى ستة أشهر في أقبية النظام، يقودنا أنا والدفعة التي وصلت اليوم مساعد أول، يطلب من مسؤولي المهاجع إحضار «الميت»، أبتسم في سرّي معتقداً أنه يحاول إخافتنا لا أكثر، لم تمضِ دقيقة حتّى كان بعض المعتقلين يحملون جثة أحد زملائهم في غطاء بنّيّ، كانت الجثة لبقايا إنسان أنهكه الجوع والمرض، تنتشر البقع الجلدية عليها من الرأس حتى أخمص القدمين، فيما لم يبقَ من المتوفّى إلا عظامٌ يكسوها الجلد.

البقع الجلدية هذه سأرى ما يشبهها وما هو أفظع منها بمجرد أن خطت قدمي داخل مهجع «الموت»، كما يطلق عليه المعتقلون، 164 معتقلاً في غرفة واحدة لا تزيد مساحتها عن ثلاثين متراً مربعاً، المعتقلون القدماء متّكئون على الجدران، وكومة بشرية في باقي مساحة الغرفة، ضحكت في سري وأنا أقارن بين قاعة في فندق ميريديان بيروت حيث أجريت امتحاني صباحاً، ومهجع الموت حيث سأقضي ليلتي.

في الليلة الوحيدة التي قضيتها، سأسمع قصصاً وأرى مشاهد

لم ولن تفارق مخيّلتي ما حييت، معتقلون أحداث، جلبتهم حملات مداهمة أو حواجز عسكرية للنظام من المناطق الثائرة، بعضهم قارب الجنون أو جُنّ فعلياً، وبعضهم بلغ به المرض ما بلغ، كان الأكثر إيلاماً بالنسبة لي، أن المهجع تحول نتيجة الظرف غير الإنساني ونتيجة الازدحام الخانق إلى غابة، البقاء فيها للأقوى، كل دقائق تنشب معركة بين اثنين حول مسألة غاية في التفاهة، كأن يدوس أحدهما على قدم الآخر! من أكثر الحالات المؤثرة، معتقل حدث لا يتجاوز السابعة عشرة، كان يبول في مكانه بشكل لا إرادي كل عدة ساعات، وكأن مشكلته هذه لم تكن كافية، ما إن يفعلها حتى تنهمر عليه الصفعات واللطمات من زملاء المهجع.

تقودني المصادفة لأكتشف أن أحد معارفي معتقل في الفرع ذاته، سأسمع منه الشهادة الأقسى لأنه ينام على باب مهجعه المطل على البوابة الرئيسية، سيقول لي إنه في 22 يوماً قضاها حتى تلك اللحظة، تمكّن من إحصاء 44 جثة لمعتقلين قضى معظمهم بتأثير الأمراض المزمنة، فهُنا لا طبيب ولا دواء.

يوم واحد، ويقررون الإفراج عني، لا أعرف لماذا كانوا رحماء معي، لكني أعرف أن القدر كان حليفي، يجتمع حولي بسرعة عدد من المعتقلين، لتزويدي بأرقام هواتف أهاليهم من أجل أن أطمئنهم، أستلم أغراضي الشخصية ناقصة من بعض أشيائها الأثمن، وأعرف من المحقق أنني «مواطن صالح»، ثم تفتح بوابة لا تكشف من الأمام عن أهوال ما يجري خلفها.

كرة القدم والثورة السورية:
جمهور الانتفاضة ولاعبو النظام

(نشر في «الجمهورية»، 2016/2/20)

قبل أيام قلائل، أعلن لاعب المنتخب السوري لكرة القدم سابقاً والمحترف في نادي الكويت الكويتي فراس الخطيب جاهزيّته للعودة إلى تمثيل المنتخب السوري، فالخطيب الذي كان أعلن عام 2012 رفضه تمثيل المنتخب «مادام هناك مدفع يقصف في أيّ مكان». اختار، في اختيار لا يخلو من الدلالة، موقع «روسيا اليوم» للقول إنه «من الطبيعي قبول الدعوة – لتمثيل المنتخب السوري – لأن تمثيل المنتخب وتمثيل الوطن شرف لكل لاعب»، فيما تزامنت عودة ابن نادي الكرامة الحمصي مع تزايد عودة «منشقّين» و«معارضين» عن مواقفهم السابقة، وصولاً إلى الانضواء مجدداً تحت سلطة النظام الأسدي، وكان من أبرز الأمثلة على ذلك مؤخراً عودة شيخ عشائر البكّارة نواف البشير إلى سوريا، بعد تمهيد إعلامي مماثل لتمهيد الخطيب، إذ ظهر البشير على قناة «العالم» الإيرانية كخطوة أولى سبقت عودته النهائية إلى «حضن الوطن».

لكن «الانشقاق المضاد» لفراس الخطيب حمل خيبة أمل كبيرة

لأنصار الثورة السورية من الجمهور الرياضي، ذاك أن الكابتن السابق لمنتخب سوريا كان من القلة القليلة من اللاعبين التي اتخذت موقفاً علنياً وواضحاً من نظام الأسد، بل إنه شارك في احتفال جماهيري مناصر للثورة في الكويت، وظهر مرتدياً لوشاح بألوان علم الثورة السورية، عدا سمعة حسنة وتهذيب شديدين لطالما عُرف بهما.

انتماء الخطيب، سابقاً، إلى قلة من اللاعبين المناصرين علناً للثورة السورية، يطرح سؤالاً عن الأسباب التي جعلت أعداداً محدودة من لاعبي كرة القدم السوريين ينحازون للثورة على نظام الأسد، في مقابل أغلبية من هؤلاء فضّلت أحد خيارَي: الصمت المتواطئ، أو الدعم العلني للنظام الأسدي. أحاول في هذه المقالة الإجابة عن هذا السؤال، زاعماً أن هناك أسباباً أربعة أفضت إلى مثل هذه النتيجة.

صعود اقتصادي

بعيد تولّي بشار الأسد الحكم خلفاً لوالده حافظ في عام 2000، بدأ النظام سياسة لبرلة اقتصادية تسلّطية، كان يشار إليها في وسائل الإعلام الغربية على أنها سياسات إصلاح وانفتاح. وبعيداً عن نقاش هذه السياسات التي كانت في لب الوضع الاجتماعي الاقتصادي السياسي الذي قاد إلى انفجار الثورة السورية في آذار من عام 2011، فإن من الآثار المباشرة لهذه السياسات على القطاع الرياضي، كان التحول التدريجي في بعض الألعاب الرياضية، وفي مقدمتها كرة القدم، من نظام الهواية إلى نظام الاحتراف عبر سلسلة من التشريعات والقوانين، وإن كان من النافل الإشارة إلى أن هذا الاحتراف كان، بالطبع، احترافاً مشوّهاً.

قاد هذا الانتقال إلى تغيّر جذري في عوائد اللاعبين، وبعدما كان

العديد من لاعبي كرة القدم السوريين يمارسون مهناً أخرى إلى جانب الرياضة، بات هؤلاء يكتفون بممارسة كرة القدم التي باتت تكفل لهم حياة «كريمة»، لم يكن أسلافهم قبل سنوات قليلة يحلمون بها، وأصبحت الدخول الشهرية لمعظم لاعبي دوري الدرجة الأولى تبدأ من 15 ألف ليرة سورية (312 دولار أمريكي) لتصل بالنسبة إلى بعض النجوم إلى أضعاف هذا الرقم، خاصة أن الراتب الشهري كان جزءاً من مدخول اللاعب الذي يضاف إليه ما كان يعرف بـ «مقدّم العقد»، وهو دفعة مالية ينالها اللاعب بمجرد توقيعه لمصلحة ناد معين، وكانت بعض الدفعات تصل إلى عدة ملايين من الليرات السورية، إلى جانب «دفعات من تحت الطاولة» كان ينالها اللاعب بشكل غير رسمي لتجاوز قانون كان يحدد سقف العقود والمقدمات، إضافة إلى هبات ومكافآت قد يحصل عليها من معجبين قادرين وغيرها.

وإن كان لاعبو كرة القدم السوريون بقوا في حالة لا يرثى لها مقارنة بنظرائهم في دول الخليج العربي أو حتى بعض دول الجوار، إلا أن العقد السابق للثورة السورية عرف صعوداً هائلاً في وضعهم الاقتصادي، ما يجعل مقارنتهم جائزة بشريحة أخرى غابت هي الأخرى جزئياً عن المشاركة الفعالة في الثورة، وهي شريحة المعلّمين، التي تغير وضعها الاقتصادي بسرعة هائلة بسبب انتشار المدارس الخاصة، والطلب الهائل على الدروس المنزلية (الدروس الخصوصية) في السنوات السابقة لعام 2011.

تزامن تغيّر وضع اللاعبين الاقتصادي ذلك مع تولّي عدد من رجال الأعمال مناصب الرئاسة في عديد الأندية السورية، ذاك أن رجال الأعمال هؤلاء كانوا وحدهم القادرين على توفير المستلزمات الرياضية ورواتب جيش اللاعبين والمدربين والإداريين وغيرهم،

إلى جانب استغلالهم رئاسة أندية ذات جماهيرية في مدنهم لغايات ومآرب أخرى، تبدأ من «البريستيج» الاجتماعي، ولا تنتهي عند الترشح لمجلس الشعب السوري، مروراً بما يتعلق في حالات خاصة بتبييض الأموال. فيما لم تكن الأندية السورية مؤسسات تعود بربحية على مالكيها، كما هو الحال في معظم الأندية الرياضية حول العالم.

ومكانة اجتماعية..

كان من آثار سياسات اللبرلة الاقتصادية التسلطية ما بعد عام 2000 أيضاً أن شهد الإعلام السوري فورة كمية وصلت آثارها إلى الإعلام الرياضي، فظهرت وسائل إعلام متخصصة كان منها صحف «الملاعب» و«الرياضة» و«الرياضية»، والأخيرة بدأت كصحيفة أسبوعية وسرعان ما تحولت إلى نصف أسبوعية، وباتت ذات شعبية كبيرة إلى درجة أنها باتت توصف في وسائل الإعلام الأخرى بـ«واسعة الانتشار» في حال الإحالة عليها. انضمت هذه الصحف الملونة الثلاث (توقفت منها اثنتان واستمرت الرياضية) إلى صحيفتي «الموقف الرياضي» و«الاتحاد» الرسميتين ذواتي الألوان الكالحة. وبفضل هذه الصحف وعبرها، وكذا عبر القنوات الفضائية والإذاعات التي أصبحت أكثر رواجاً وانتشاراً، ازدادت نجومية لاعبي كرة القدم السوريين ومكانتهم، بالترافق مع صعودهم الاقتصادي الذي وفّر لمعظمهم مكانة أرفع من ذي قبل. وغدا برنامج «الكرة بملعبك» على شاشة فضائية «الدنيا» مثلاً من أكثر البرامج تحقيقاً لنسب المتابعة التلفزيونية في سوريا.

تلا فورةَ الصحافة المطبوعة طفرةٌ في وسائل الإعلام الإلكترونية، وانتشارٌ أيضاً للمنتديات الرياضية الإلكترونية (كان من أبرزها منتديات موقع كورة البحريني)، وساعدت تلك في تواصل الجمهور الرياضي

السوري المغترب بشكل أسهل وأسلس مع الرياضة السورية في البلد الأم، وجعل اللاعبين السوريين يتمتعون بنجومية موازية في أوساط الاغتراب السورية.

وإن كان لاعبو المنتخب السوري دائماً ما حظوا بشعبية في أوساط الجماهير الرياضية خلال العقود الثلاثة الأخيرة، فإن مستويات هذه الشعبية حلّقت عالياً مع الازدياد الكبير في عدد السكان وخاصة الشباب، مع تجاوز هذه الشعبية اللاعبين الدوليين إلى معظم لاعبي الأندية السورية المحليين.

زاد من ذلك أن النجومية باتت تبدأ من مراحل سنيّة مبكرة، فمع أواخر تسعينيات القرن الفائت، أصبحت المنتخبات السورية من الفئات العمرية الأدنى دائمة الحضور في التصفيات والبطولات الإقليمية والقارية، وكانت هذه المنتخبات كثيراً ما تحقق إنجازات أو نتائج معقولة بالمقارنة مع المنتخب الأول، كمنتخبات الناشئين – دون 17 عاماً، والشباب – دون 19 عاماً، والأولمبي – دون 23 عاماً (تعود النتائج المعقولة هذه في تقديري إلى سببين: الأول هو التزوير في أعمار اللاعبين، والثاني ضيق الفجوة بين لاعبي هذه الفئات ونظرائهم في الدول الأخرى نظراً لصغر السن نسبياً مقارنة بلاعبي منتخبات الرجال، فيما تتسع هذه الفجوة تدريجياً بمرور الزمن نتيجةً للتخلف الكروي الإداري والتدريبي وانتشار المحسوبيات والفساد في سوريا).

السطوة الأمنية

قبيل انطلاق مباراة تجمع ناديي الوحدة الدمشقي والوثبة الحمصي في ملعب العباسيين بدمشق في الأسابيع الأولى للثورات العربية، وبُعيد

تنحّي الرئيس التونسي زين العابدين بن علي، كنت شاهداً شخصياً على رفع رابطة مشجعي نادي الوحدة لافتة تقول: «هم يحرقون أنفسهم كي يغيّروا رؤساءهم، ونحن نحرق العالم كي يبقى رئيسنا الدكتور بشار الأسد». علمت لاحقاً من صحافيين وشهود أن لافتات أخرى بمضمون مطابق أو مشابه إلى حد كبير رُفعت في الملاعب السورية في المحافظات الأخرى. كان هذا التطابق في التوقيت والمحتوى دليلاً على توجيه مركزي برفع هذه اللافتات، سواء من الاتحاد الرياضي العام الموصوف بأنه «أعلى سلطة رياضية في سورية»، أو من قبل أجهزة أمنية تتحكم أساساً بالاتحاد الرياضي العام ومختلف «مؤسسات الدولة السورية» الأخرى.

وبصفتهم فاعلين في الشأن العام بشكل أو بآخر، كان اللاعبون السوريون دائماً محطّ الأنظار، وفي الأشهر الأولى للثورة السورية، دأبت فضائية «الدنيا» والقنوات الرسمية التابعة للنظام الأسدي على استضافة لاعبين حاليين ومعتزلين في أحاديث «ولاء» للنظام، مستخدمةً شعبية هؤلاء للترويج لمواقف النظام وخياراته في مواجهة الثورة، تماماً كما استخدمت الفنانين لأداء أدوار مماثلة.

وإن كان ليس معدوماً أن تسمع أن بعض لاعبي المنتخب السوري الحالي، عدا لاعبي الأندية بطبيعة الحال، يملكون مواقف «معارضة» لنظام الأسد ومنحازة للثورة عليه، فإن القبضة الأمنية والأثمان الباهظة التي من الممكن أن تُدفع تحول دون أن تتحول هذه المواقف المعارضة من الصمت العاجز إلى التعبير العلني الفاعل.

وفي حادثة ذات دلالة صارخة، تعرّض نجم المنتخب السوري سابقاً ونادي الأهلي السعودي عمر السومة لاعتداء من زميله حارس المنتخب إبراهيم عالمة، بعد أن قام الأول بتحية جمهور سوري يرفع

علم الثورة خلال مباراة أقيمت في الكويت في بطولة غرب آسيا عام 2012 وفاز فيها المنتخب السوري، ولاحقاً جرى استبعاد السومة، ثم رفض هو العودة إلى المنتخب فيما تحول عالمة إلى الحارس الأساسي وحمل شارة قائد المنتخب في بعض المناسبات دون أن يتعرض بالطبع لأدنى محاسبة على اعتدائه على زميله.

الأمن والأمان

كأي شرائح أخرى تنتمي إلى الفئات الوسطى أو المتبرجزة، يُرجح أن يفضل لاعبو كرة القدم «الاستقرار» على التغيير الذي ستصاحبه حالة عدم استقرار أو اضطرابات وفوضى، فاستمرار البطولات الكروية وتنظيم المباريات وحضور الجماهير وضمان الاهتمام الإعلامي والتدفق المالي وثبات الأوضاع الاقتصادية والأمان النفسي لا تتناغم جميعها مع الثورات والاحتجاجات المطالبة بالتغيير، فكيف والحديث هو عن سوريا التي سرعان ما بدا أن التحول الديمقراطي فيها يتجه نحو المجهول مع العنف المهول الذي مارسته أجهزة النظام الأمنية من بدايات الاحتجاجات.

زاد على ذلك أن النظام كان يحاول منذ أسابيع الثورة الأولى، إظهار «هامشية الاحتجاجات» في مقابل «استمرارية سير الحياة العادية» تحت سلطته. هكذا التقت رغبة النظام الإعلامية للقول إن كل شيء على ما يرام، مع رغبة اللاعبين في استمرار الدورة الرياضية المعتادة وكل ما يرتبط بها اقتصادياً واجتماعياً. لذا كان لاعبو كرة القدم السوريون في أغلبهم أقرب إلى حزب «الكنبة» من تبنّي أي موقف سياسي، فيما شارك بعضهم طوعاً أو قسراً في أداء أدوار ضمن ماكينة النظام الإعلامية، ومن الأمثلة البارزة على ذلك ظهور مدرب المنتخب السوري آنذاك

فجر إبراهيم، إلى جانب كل من نجم المنتخب أسامة أومري، والناطق الإعلامي بشار محمد، في مؤتمر صحافي عام 2015 في سنغافورة يسبق خوض المنتخب مباراة ضمن تصفيات كأس العالم 2018، وكان ثلاثتهم يرتدون بزّات عليها صورة بشار الأسد، فيما تكفّل المدرب بالكلام بعصابية عن «فخره بالرئيس الذي يحارب الإرهاب».

***

كانت كرة القدم السورية إذاً إحدى مرايا المجتمع، وتكفي نظرة سريعة على سجلّ الفرق الحائزة على ألقاب البطولات السورية في العقود الأخيرة، لملاحظة بعض انعكاسات التغيرات السياسية والاجتماعية الاقتصادية في البلاد. ففريق الفتوة من دير الزور، الذي كان أحد أقوى الفرق السورية في أواخر الثمانينيات ومطالع التسعينيات، بما يشمل نيل لقب الدوري مرتين ولقب كأس سوريا 5 مرات، عرف تراجعاً شديداً حدّ الهبوط إلى الدرجة الثانية بعد ذلك بسنوات قليلة، وبعد تولي الأسد الابن الحكم عام 2000 سيطرت أندية «المركز» السوري على كل البطولات، في مقابل لعب أندية «الأطراف» السورية أدواراً هامشية.

فبين العامين 2000 و2011 نال نادي الجيش – التابع لهيئة الإعداد البدني في الجيش والقوات المسلحة – لقب بطولة الدوري 4 مرات وبطولة الكأس مرتين، بينما نال نادي الوحدة الدمشقي بطولة الدوري للمرة الأولى في تاريخه عام 2004 مستفيداً بشكل كبير من قدرته المادية على التعاقد مع لاعبين من أندية المحافظات الطرفية. وتقاسم معظم الألقاب الأخرى في هذه الفترة ناديا الاتحاد الحلبي والكرامة الحمصي، بينما لعبت فرق أمية الإدلبي والجزيرة الحسكاوي والفتوة

الديري أدواراً هامشية، ولم تعرف محافظات الرقة والسويداء ودرعا والقنيطرة وطرطوس وريف دمشق تمثيلاً في دوري الدرجة الأولى السوري، واكتفت الفرق الممثلة لهذه المحافظات بالتنافس في الدرجات الأدنى عدا استثناءات عابرة. (يشكّل غياب نادي تشرين اللاذقي عن منصات التتويج استثناء لافتاً وجديراً بتقصٍ مستقل. أما نادي الجهاد القامشليّ فتعرّض لعقوبات قاسية عقب الانتفاضة الكردية عام 2004، ذاك أن هذه الانتفاضة اندلعت شرارتها بالذات في مباراة جمعت الجهاد والفتوة في مدينة القامشلي، وجرى حرمان الفريق من خوض المباريات في المدينة بعيد قمع الانتفاضة).

***

وكما حدث في عديد الثنائيات التي عرفتها سوريا منذ انطلاق الثورة قبل نحو ستة أعوام، والتي انحازت فيها، بشكل عام يعرف بعض الاستثناءات، نخبة ضيقة إلى النظام في مقابل انحياز الجمهور الأوسع إلى الثورة، حدث ذلك في عالم كرة القدم السورية أيضاً. فمثلما انحازت غالبية رجال الأعمال والتجار وأصحاب المصانع الحلبيين إلى النظام، مقابل انحياز أكبر بين العمال القادمين من أحياء حلب المهمشة وريفها إلى الثورة، وكما بقي صنّاع الدراما التلفزيونية ونجومها، الذين أنتجوا قبل 2011 عدداً من المسلسلات عن بيئة العشوائيات، تحت مظلة النظام في مقابل أبناء العشوائيات الثائرين على آل الأسد، كان أن اختار معظم اللاعبين الانحياز إلى النظام أو البقاء في عداد الأغلبية الصامتة، في مقابل الجماهير التي اعتادت أن تملأ المدرجات لمشاهدة هؤلاء اللاعبين، ثم ملأت الشوارع متحولة إلى اللاعب الرئيسي في الثورة السورية.

لكن ذلك عرف استثناءات بارزة أيضاً، فنبيل الشحمة، اللاعب السابق لمنتخب سوريا ونادي الوحدة، حمل السلاح ضمن صفوف الجيش السوري الحر في فترة من الفترات (يمكن فهم ذلك بالنظر إلى أن الشحمة كان في أواخر مشواره كلاعب عدا انتمائه إلى أحياء الجنوب الدمشقي الثائرة ومنبته الذي يعود إلى درعا)، كما اعتقل لاعبون آخرون لمشاركتهم في الحراك الاحتجاجي لفترات متفاوتة وبعضهم ما زال قيد الاعتقال، ومن هؤلاء لاعب نادي تشرين اللاذقي طارق عبد الحق، ولاعب المنتخب السوري للشباب عامر حاج هاشم، وآخرون. بينما ذكرت وسائل إعلامية قبل أشهر أن القائد السابق لنادي الكرامة ولاعب منتخب سورية جهاد قصاب قضى تحت التعذيب في سجن صيدنايا، بعد عامين من اعتقاله في آب من العام 2014 على أيدي عناصر فرع الأمن السياسي بحمص.

إقرارٌ بالفضل

(نشر في «عنب بلدي»، 2016/1/31)

قبل أيام قليلة فقط استشهد تسعون شاباً سورياً دفاعاً عن بلدة «الشيخ مسكين» في ريف درعا، وتداولت مواقع إعلامية وصفحات تواصل اجتماعي قائمة بأسماء الشهداء التسعين، كانوا جميعاً سوريين، وكان معظمهم، عدا شابّين أو ثلاثة، من أبناء محافظة درعا، من «الشيخ مسكين» نفسها أو من بلدات مجاورة. سقطوا في مواجهة آلة قتل أسدية مدعومة بميليشيات احتلال طائفية من دول مجاورة، وبغطاء طيران استعماري روسي لا يني يسعى لتكرار النموذج الشيشاني عبر سياسة أرض محروقة تدمّر الحجر وتقتل البشر.

هؤلاء هم أبناء هذه الأرض، سقطوا على ترابها وهم يدافعون عن بلداتهم، كأي صاحب أرض في مواجهة أي احتلال، لم يلقوا حتفهم في حرب جهادية خارج بلادهم، ولا هم أعضاء في ميليشيا طائفية تتحرك بتوجيهات إقليمية، ولا أفراد جيش بلد يحتل بلداً آخر، بل ولم يسقطوا في مدن سورية أخرى بعيدة عن قراهم وبلداتهم. هم «ولاد الأرض السمرة»، على ما في هذا التشبيه من تكرار، وعلى الرغم من

استخدامه المبتذل في بعض السياقات. وهم أنفسهم من سبق أن حمل لواء مظاهرات سلمية طالت شهوراً.

لولا هؤلاء لكنت أنا كصحافي تائهاً ربما في مبنى وزارة الإعلام باحثاً عن واسطة تؤمّن لي وظيفة هنا أو هناك، ولكان سقف ما أكتبه يتعلق بإهدار المياه في خزان مدرسة ابتدائية، ولكان من يُعتبر نجماً حقوقياً اليوم تائهاً في أروقة القصر العدلي، مستلماً زمام قضية يدافع فيها عن مجرم مع سبق الإصرار، ولكانت الناشطة النسوية تعقد اجتماعاً مع بسام القاضي، ولكان الكاتب ذاك يكتفي بتحليل الإجرام الإسرائيلي المفضوح بحق شعبنا الأعزل في فلسطين، دون أن يجرؤ على كتابة سطر واحد حتى عن دول مجاورة كلبنان والعراق، ولكان أقصى ما يمكن لمنظمة المجتمع المدني تلك أن تفعله هو جمع أكياس بلاستيكية من أرض مجاورة لمنشأة يملكها فاسد كبير.

قتل النظام وحلفاؤه وأسياده شباب «الشيخ مسكين» مرّة، وقُتلوا معنوياً قبل ذلك وبعده مرات ومرات: مرة عبر معارضة تبيع وتشتري بهم، ومرة عبر «معارضة» عاملتهم كأعدائها الألدّ، وألّبت عليهم وشوّهت صورتهم وشوّشت على بطولاتهم وتضحياتهم، ومرة عبر ناشطين وناشطات بسّطوا من العوامل المركبة والظروف الاجتماعية والاقتصادية التي دفعت بالعديد من السوريين إلى أن يمضوا في ثورتهم إلى أقصاها، ليتحول هؤلاء إلى مجرد «رجال غاضبين» في نظر من أصبح اليوم نجماً بفضل ثوّار يطعن بهم.

صدر من سلسلة «**شهادات سورية**»:

بمساعدة من جمعية «مبادرة من أجل سورية جديدة» ـ باريس:

1. موزاييك الحصار، عبد الوهاب عزّاوي.
2. إلى ابنتي، هنادي زحلوط.
3. بين الإله المفقود والجسد المستعاد، نبراس شحيّد.
4. كَمَن يشهد موته، محمد ديبو.
5. حكايات من هذا الزمن، دلير يوسف.
6. لم أتمدد يوماً على سكة قطار، أحمد باشا.
7. مزهرية من مجزرة، مصطفى تاج الدين الموسى.
8. غرفة تطل على الحرب، إيديت بوفييه.
9. إذا قفزت عن السياج ولم أصب بأذى، عمرو كيلاني.
10. أرض مائدة، ضحى حسن.
11. لم تنته الحكاية بعد، رؤى الإبراهيمي.
12. إكثار القليل، دارا عبد الله.

بدعم من المنظمة الأورو ـ متوسطية لدعم المدافعين عن حقوق الإنسان:

13. رسائل من سورية، وجدان ناصيف.
14. يوميات وقصائد، علي جازو.
15. انسَ دمشق، عمر يوسف سليمان.

بمساعدة من جمعية «مبادرة من أجل سورية جديدة» ـ باريس:

16. ما تبقّى من حياة، سهى زكريا.
17. لا تغمض عينيك!، د. حسّان عبّاس.
18. الدرب مسامير، منار سهران شلهوب.
19. قنديل أم هاشم المفقود، عدي الزعبي.
20. الموت كما لو كان خردة، وداد نبي.
21. مذ لم أمت، رامي العاشق.
22. كأنها قيامة، محمد صدّيق عثمان.
23. خالي الذي في قبضتهم، ملاذ الزعبي.